٦٥

مجلة
روايات أحلام

لا تخافي في قلبك

www.7akawyna.com

مرمورية

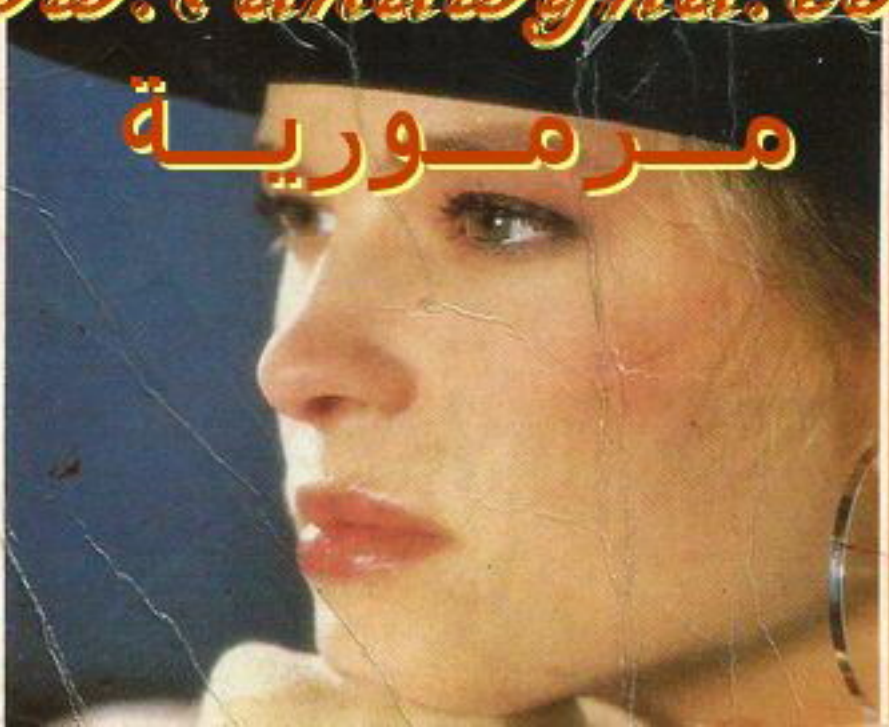

مجلة روايات أحلام

لا تخافي قلبك

سرت قشعريرة صغيرة من الشوق في كيانها كله. شوق؟ إلى هذا الرجل؟ لا بد أن هذا جزء من الخيال الذي تطوف فيه...

كيف تستطيع أن تعيش مع رجل يرعبها حتى الموت، وفي الوقت نفسه يسلب قلبها بمجرد نظرة منه؟ البارون فرانكو دوسانكور يريدها الآن وهو رجل تعوّد أن تكون إرادته قانوناً.

استجمعت غريتا كل الأسى الذي زرعه في نفسها طوال سنوات، وكل الخوف الذي يفرضه وجوده ووجهه المشوّه عليها. لكن كل ذكرياتها المظلمة المتعلقة به لم تكن كافية لتقول لا...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١,٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب.	العراق

١ ـ بارون الظلام

بدأ اليوم يوماً عادياً. فلم تحسَّ غريتا حين استيقظت أن مصيبة ما على وشك الوقوع... ارتدت ملابسها، ومشطت شعرها الكستنائي حتى أصبح برّاقاً ثم هرعت إلى الطابق السفلي بحبور ومنه إلى الشارع. لن تعود مرة أخرى إلى أتون الذوبان... الأمر الوحيد الذي تكرهه معرفتها بأنها عاجلاً أم آجلاً ستضطر إلى مواجهة فنسنت ديكسون بشأن الصفقة التي يجريها من وراء ظهرها. كانت تغني أثناء المسير إلى محطة مترو الانفاق.

وصلت كالعادة قبل أي شخص آخر، وهذا ما تحبه، لأن ذلك يمهلها الوقت للتفكير في أمور كثيرة جوهرية، فما أن يصل فنسنت حتى يقلب المكتب رأساً على عقب.

فنسنت شاب ديناميكي ناجح جداً ولكنه غير منظم ولهذا السبب أدخل غريتا معه شريكة ثانوية حين أسس وكالته العقارية. فلم تكن غريتا على معرفة تامة بأمور الأملاك فقط بل كانت قادرة كذلك على إدارة مكتب حافل بالأعمال وحدها إذا لزم الأمر فيما هو وديسموند يورك يتوليان الأعمال الخارجية.

ابتسمت غريتا بخشونة، وهي تراجع البريد اليومي. بإمكانها إدارة المكتب، نعم، إنما هذا فقط إن حظيت بقليل من الوقت لنفسها بعيداً عن فنسنت ونشاطه العاصف.

في الشهر الأول الذي عملا فيه لم يكن لديها أي وقت يذكر، كان قد أشركها في كل شيء لأنه في البداية رغب أن يؤثر فيها، غير أنه عاد

فخفّف من ذلك لأنه كان كمن يعارض نجاحها المتزايد مع زبائن المكتب الإيطاليين.. كانت براعتها باللغة الإيطالية تفوق قدرته هو لذلك راح الزبائن يطالبون بها وهذا ما لم يعجب فنسنت أبداً.

حين علمت أنه يقوم بأعمال من وراء ظهرها مع شخص كان من المتوقع أن تقابله هي أولاً، افترضت في البداية أن هذا مظهر من مظاهر الغيرة المهنية وإصرار من فنسنت على إثبات قدرته على التعامل مع زبون يتحدث الإيطالية بدون مساعدة غريتا أورك. ولكنها كانت تشعر بأن وراء تكتمه ما هو أعظم. إنها تعرف الدلائل التي تظهر على شخص يقوم بصفقة مشبوهة كادعاء العفوية وظهور بوادر الانفعال المكبوت.

كانت قد لاحظت مثل هذه البوادر على عمها غودفري حين شاهدته آخر مرة لذا عرفت أن عليها أن تواجه فنسنت لتطالبه بالاعتراف بما يفعل حتى وإن كانت صفقته الخفية قانونية، فلو حلّ به خطب ما لجرّت هي وديسموند أيضاً وهذا معنى الشراكة.. شريك واحد مسؤول عن الآخرين: الديون، العمل، آداب المهنة.. ارتجفت غريتا.. وتابعت تفض البريد.

كان بين الرسائل رسالة عليها دمغة بريد «بورتو بانوس» فنحّتها جانباً لتنظر في أمرها حالاً. كان هناك عدد آخر من الرسائل وصلتهم من الخارج ولكنها لم تتوقع أن تجد فيها أمراً اضطرارياً، فتركتها لماغي، سكرتيرتها وسكرتيرة فنسنت. ثم، توقفت أصابعها على كومة المغلفات: أن يكتب على المغلف بخط اليد أمر نادر، وهذا الخط بالذات تحسّ أنها تعرفه.. ترددت ثم انتزعت الرسالة وقلبتها إلى الجهة الخلفية، فالمرسلون عادة يضعون عناوينهم في الخلف. ولكن لم يحدث هذا في هذه الرسالة.

تركتها ثم هزّت كتفيها، ربما هو زبون جديد.. بإمكان ماغي فضها لتحيلها بعد ذلك إلى الشخص المختص. فماغي رغم صغر سنها

وقلة خبرتها لأن هذه الوظيفة هي وظيفتها الأولى كانت كفؤة.

سمعت طرقاً على الباب الخارجي، فرفعت رأسها حالما دخل الوافد الجديد إلى المكتب الصغير خلف منطقة الاستقبال المفتوحة. قال ديسموند يورك بحبور:

ـ صباح الخير.. يوم جميل.. ألم يصل نابليون بعد؟

لم يكن فنسنت محبوباً من موظفيه، لكن ديسموند، البائع الجيد، وخبير الأملاك كان الوحيد الذي يظهر هذا بوضوح. ردت غريتا تعض شفتها:

ـ قال شيئاً ليلة أمس عن لقاء زبون في المطار.. كما قال إنه قد يتأخر.

لم يظهر على ديسموند الدهشة، بل قال:

ـ عظيم.. ألم يطلب منك مرافقته؟

ـ لا.. وأنا مسرورة لأنه لم يطلب ذلك. إنني أفضل أن أبدأ يومي بدون أن يكون عندي عمل متأخر.

ـ ومتى بدأت عملك قبل أن تنهي كل ما خلّفه وراءه حبيبتي؟ ألا تعلمين أنك تضيعين نفسك برعايته؟

لم ترد.. فهو الشخص الوحيد القادر على قول هذا، مع أنها تدرك أن هذا الرأي يشاركه فيه معظم العاملين السبعة عند فنسنت.

وضعت الرسائل غير المفضوضة على طاولة ماغي، وعادت إلى طاولتها، فراقبها ديسموند ساخراً، ولم يكن في سخريته ما يدعو للغضب.. إنها تعرفه مذ تعرفت إلى فنسنت ولكن أياً منهما لم ينجذب إلى الآخر ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلتها توافق على الانضمام إليهما حين أسسا وكالتهما. فالجاذبية تجعل غريتا متوترة، وهي لم تشعر مع فنسنت وديسموند بمثل هذا التوتر إطلاقاً.

كانت تعرف أن فنسنت يراها فتاة صغيرة الجسم، أكثر من متوسطة

الطول بقليل، ترتدي دائماً وببساطة، بذلة كحلية وبلوزة متموجة، ذات ياقة مرتفعة، وربطة عنق رفيعة كشريط الحذاء. وكان يرى أيضاً أن بنيتها جيدة وشعرها القصير براق ذو لون ذهبي يتدرج بين الكستنائي والذهبي. وكانت بشرتها رائعة أشبه ببشرة طفل، أما أهدابها التي غالباً ما تخفي الضحكة في عينيها اللوزيتين، فكانت طويلة معكوفة كما يمكن أن تتمناها أية إخصائية تجميل. لم يكن لديها فكرة أن ديسموند مؤمن بأن غريتا أورك، الكفؤة قد تكون صارخة الجمال إن شاءت. فعيناه الحاذقتان وجدتا منذ زمن بعيد أن لديها روحاً متألقة لا تسمح لها بالظهور وكثيراً ما تساءل لماذا تفضل أن تبدو غير بارزة. وهذا غريب لأن معظم النساء يرغبن في إبراز مفاتنهن بدل إخفائها! ألهى نفسه بإعداد القهوة التي سرعان ما راح سائلها يبعث رائحة مثيرة. رفعت غريتا رأسها عما تعمل وسألت ضاحكة: «متى تنتهي؟».

ـ خمس دقائق... وهذا وقت كاف لإنهاء ما أمامك للحصول على أول فنجان قهوة اليوم.

ضحكت غريتا، وعادت إلى الرسائل فكتبت رداً سريعاً على رسالة، وسلسلة من الردود الافتراضية على أخرى، ثم أجابت هاتفياً رداً بالتلكس على رسالة ثالثة باللغة الإيطالية، وبعد ذلك رفعت رأسها فرأت ديسموند يصب القهوة في الكوب الذي على طاولتها. في هذا الوقت كانت ماغي قد وصلت بعدما عصفت بها الريح. وجلست على مقعدها في المكتب الخارجي لتتعامل مع الزبائن ثم دست كيس رقاقات البطاطا الذي لا بد منه في درج طاولتها.

علق ديسموند:

ـ هذه الطفلة تأكل طعاماً لا فائدة منه أكثر من أي شخص آخر وفي الواقع أنها تأكل كثيراً، ومع ذلك تظلّ نحيلة كالعصا.

أرجعت كرسيها إلى الوراء: «هذا غير عادل».

وارتشفت قهوتها الساخنة اللذيذة الرائحة.

ـ ولماذا تحسدينها وأنت نحيلة جداً.. هل نحلت بعض الشيء مؤخراً؟

كانت فعلاً تخسر من وزنها، مع أنها لم تكن مريضة.. ولكن منذ أن جاء غودفري إليها آخر مرة وهي تنسى أن تتناول الطعام أحياناً.

ـ أهناك ما يشغل تفكيرك؟

رفعت كوب القهوة إلى ثغرها، أما ديسموند فجلس قبالتها مسنداً مرفقه إلى الطاولة قائلاً بمكر أدهشها:

ـ ولا تدعي نابليون يؤثر فيك.

ارتفعت عيناها إلى وجهه.. حين يدهشها أمر ما كانت عيناها تتسعان وتشعان كعينيّ قطة.. أكمل ديسموند:

ـ أنا أعرف فنسنت أيضاً، ولا تعجبني بعض الصفقات التي يورط فيها نفسه. ولا أظنك راضية أيضاً، أليس كذلك؟ ولهذا السبب يبقيها سراً لنفسه. هناك شخصيات غريبة تأتي لمقابلته، خاصة في الأمسيات.

تنهدت غريتا لأنه أقلقها أن تسمع أسوأ مخاوفها تصدر كلاماً مقنعاً صارخاً، فهي منذ أسابيع تتعلق بأمل أن تكون مخطئة.

ـ هل قابلت أحدهم، فهو لم يسمح لي برؤيتهم؟

هز ديسموند رأسه ببطء ثم ابتسم:

ـ ولم يسمح لي أيضاً، عرفت بمحض الصدفة، تقريباً. كنت قد نسيت معطفي في المكتب، وعدت لآخذه فوجدت عنده صديقه الإيطالي. كانا يتحدثان عن مشروع تطوير الخط الساحلي من رفانا حتى انكونا. وبدا لي هذا مشروع «الميغا» دولار.

ـ لكن هذا لا يعني أنه مشروع غير قانوني.

نظر إليها ديسموند بإشفاق:

- إنه قانوني دون شك. فلماذا يأتي بليونير متخصص بمشاريع التطوير العمراني إلى مكتب كمكتبنا فيه ثلاثة شركاء علماً أنه قادر على أن يذهب إلى وكالة عالمية لديها مئات الاتصالات.

- لكن، لدينا اتصالات جيدة في إيطاليا.

رد بنعومة:

- لديك أنت نعم لأنك تستطيعين التحدث إليهم بحسب مستواهم.. فنسنت يتولى أمر الصغار فقط.. أما أنت فنقطة ارتكاز عملنا في الأملاك الإيطالية وانظري رغم ذلك لا يسمح لك بمعرفة هذه الصفقة.. وهذا ما هو مطلوب معرفة سببه... حسناً، سأذهب لأباشر بالعمل.

عندما وقف مال قليلاً إلى الأمام ليعبث بالرسائل:

- أنت مصدر خجل لي.

تركها تستغرق في التفكير.. يبدو أنها محاطة بالشخصيات المريبة. تصاعد توترها وهي تفكر في هذا.. لم يكن غودفري الوحيد الذي يذكرها كلما زارها بأنها متحدرة من عائلة محتالين وخائنين، ما زال أمامها ديون كثيرة تسدّدها وها هي الآن تواجه فنسنت يزج نفسه في ورطة لا تعلم ما هي. يجب أن تكلمه لأن ديسموند لن يفعل ذلك. إن فنسنت هو أكثر من سيتضرر في هذه العملية كلها.

مررت يدها في شعرها الناعم وعيناها مظلمتان. ربما عليها ألا تفعل.. لكن لماذا لا تفعل؟.

وصل فنسنت بعد ساعة ونصف سعيداً بنفسه بشكل مريب.. بدا لها أن ترك الزبون المهم الذي حذره من أن يذكر اسمه في الفندق. دخل بسرعة فقبل غريتا بحماس على خديها، ثم وقف يتأمل تصاميم تظهر ملاعب غولف ومسابح. سحبت غريتا نفساً عميقاً فالوقت قد حان.. هيا اسأليه، اسأليه ماذا سيفعل. ولكن فيما كانت تهم

بالوقوف، سمعت صوتاً فاستدارت منزعجة بعض الشيء.

وقفت ماغي بالباب متأففة...

- في الباب امرأة تريدك. إنها تقول إنك ستقابلينها حتى بدون موعد.

نظرت إلى قطعة الورق في يدها وقالت:

- إنها تريشا موندیغو.. تقول إنك تعرفينها.

حاولت غريتا الكلام، لكن فنسنت قاطعها:

- موندیغو؟ لا أظن.. كيف هو شكلها!

- هي في الثلاثين من العمر، رائعة الثياب، سوداء الشعر كراقصة باليه وانكليزيتها رائعة.

ربما الوصف الأخير هو ما أغرى فنسنت لأنه عادة لا يقابل الزبائن عن غير سابق موعد.

قال: «حسناً.. أدخليها».

لكن حين دخلت الآنسة موندیغو، تحركت غريتا إلى الأمام بسعادة غامرة: «تريشا».

عانقتها الفتاة الإيطالية بحرارة، تصبح جذلى بلغتها، فتجهم وجه فنسنت، وقال بلؤم:

- هل أفهم من هذا أن زيارتك خاصة سينوريتا موندیغو؟

تركت تريشا صديقتها ونظرت إليه ببرود، وقالت بصوت يشير إلى أنها تجده أقل من أن يكون مؤثراً.

- أرغب في كلمة على انفراد مع غريتا.. بكل تأكيد. فهل تسمح لنا بالانفراد؟

رد فنسنت بحزم:

- أخشى أن هذا مستحيل إلا إذا كان ما تريدين ذكره يتعلق بالعمل. نحن مشغولون جداً في الوقت الحاضر سينوريتا موندیغو.

نظرت إليه تريشا بهدوء:

ـ أوه يتعلق الأمر بالعمل.

قال: «إذن سأكون مسروراً بأن أتولى الأمر بنفسي».

أشار إلى مقعد قرب طاولته.

هزت رأسها بهدوء ولطف وقالت بحزم فاق حزمه: «بل أريد غريتا».

تجهم وجه فنسنت من جديد فقاطعتهما غريتا بسرعة:

ـ لماذا لا نذهب إلى مكان نتناول فيه فنجان قهوة؟ بهذا نترك فنسنت بدون أن نزعجه. وعندما أعود أقدم تقريري.

أدركت أن عليها اختلاق قصة مقنعة حين تعود. كان هذا ما قالته لتريشا حين جلستا في صالون فندق عصري تقيم فيه تريشا وهو المكان الذي أصرّت على أن تذهبا إليه، ابتسمت تريشا، فبدت كتلك الفتاة الصغيرة التي كانت.

ـ أجل.. يبدو أن بإمكانه أن يكون شريراً.. من هو بالنسبة لك؟

انتفضت غريتا لأن تريشا صريحة دائماً بشأن الأمور الشخصية، ولكن صراحتها أتت بسرعة. فهما لم تلتقيا منذ خمس سنوات وفيما كانا في التاكسي الذي أقلهما، لم تتبادلا سوى الأحاديث اللائقة.

أكملت تريشا، وبلهجة ناعمة هادئة: «ليته لا يكون حبيبك، إنه فظ وغبي».

ابتلعت غريتا ريقها وحاولت أن تكون رزينة ولكنها أخيراً ضحكت:

ـ لا يمكن تشجيعك على شيء.

ـ هل هو حبيبك؟

ـ لا.. نحن زملاء في عمل واحد ليس إلا.

حاولت تريشا هضم هذا، ولكنها ظلت عابسة:

ـ أوه.. بدا لي متملكاً!

ـ لعمله فقط، فهو من يتعامل عادة مع الزبائن.

ـ آه.. فهمت.. إذن، أهناك شخص غيره؟

هزت غريتا رأسها:

ـ تريشا، نعرف بعضنا منذ عشر سنوات، ومنذ ذلك الوقت لم نلتق سوى مرة، ثم فجأة تظهرين فتحاولين استجوابي بشأن حياتي العاطفية. لماذا؟

عضت تريشا شفتها ثم قالت بصوت بدا متوتراً:

ـ أعتقد أن تفكيري يسير في هذا الاتجاه في الوقت الحاضر. من الواضح أنك لم تسمعي أخباري. أنا مخطوبة لفرانكو مونتاغيو دو سانكور.

أحست غريتا أن معدتها قد هوت فنظرت إلى صديقتها بذهول وكأنها غير موجودة. وكأنما الأصوات في الصالون، وجلبة السقاة، والموسيقى الناعمة لا وجود لها، إنها لم تكن ترغب في سماع ذلك الاسم إطلاقاً. وها هي تريشا، التي كانت يوماً أعز صديقة، تقول إنها ستتزوجه..

أعلنت تريشا لتزيد غريتا تشوشاً:

ـ وليتني لم أكن. لا أدري لماذا وافقت.. إنه يخيفني.

نظرت غريتا إليها عن غير وعي لأن تفكيرها لم يعد قادراً على تشكيل الكلمات.. مالت تريشا نحوها بإلحاح:

ـ أحتاج إلى مساعدتك غريتا.. حقاً! لا أدري ما أفعل.

فهمت تريشا صمت غريتا على أنه قبول أو تعاطف فسارعت تقص عليها أمر خطوبتها وعرفت غريتا أن فرانكو مونتاغو دو سانكور، قد طلب يدها منذ سنة.

ـ في البداية لم أستطع مواجهة الأمر.. إنه.. حسناً أنت تعرفينه!

ـ أجل.. أعرفه.

ـ إنه.. متباعد، عرفته منذ سنوات وما زال غريباً بالنسبة لي.

ردت غريتا لا إرادياً «أجل».

ـ كانت أمي مسرورة طبعاً.

فكرت غريتا في السنيورا موندیغو، الأرملة المرحة، التي تركت بلادها إسبانيا لتؤسس منزلاً على ساحل إيطاليا الغربي. حين تعرفت إليهما غريتا، كانت تريشا تشرف على إدارة المنزل الذي حوّلت جزءاً منه إلى مدرسة لتعليم ركوب الخيل ولكن تريشا لم تكن أهلاً لهذا العمل وهذا يعني أن السنيورا فرحت أشد الفرح عندما علمت أن رجلاً ثرياً يطلب يد ابنتها.

أكملت تريشا:

ـ بدأت تدفعني.. لم أعِ ذلك يومذاك.. في البداية قالت: إن تزوجت فرانكو فلن أقلق عليك بعد الآن. ثم قالت: «حين تتزوجان..» ثم بدأت تتحدث عن الأحفاد! ولأنني لم أعد أحتمل المزيد استسلمت، وما كان يجب أن أستسلم.. لم أستطع مواجهة الأمر.

ـ ألهذا أنت في لندن؟ هل هربت؟

ـ لا.. بل المفترض أنني جئت لأشتري جهاز وثوب العرس. فرانكو هنا أيضاً لأن جدته في المستشفى.. وهو يتحدث إلى الأطباء.

ـ والزفاف؟

ـ من المفترض أن يتم في الشهر القادم بهدوء بسبب صحة البارونة..

ارتجفت تريشا، وضمت يديها في حجرها. فاندفعت عينا غريتا إلى الأنامل المديدة التي كان في كل أصبع منها خاتماً وهذا ما كانت تراه في يدها منذ عشر سنوات. لكن الخواتم يومذاك كانت رخيصة،

ولم يكن بينها خاتم خطوبة الماسي ضخم.

تركت تريشا الساقي يصب القهوة، ويقدم البسكويت، ثم أشارت له بالانصراف:

ـ بدأ قلقي حين رحت أفكر ملياً في الأمر. أمامي أربعة أسابيع فقط قبل الزواج وأراني عاجزة عن فعل شيء حيال ذلك..

لم يكن هناك مجال للخطأ في اليأس الذي طغى على صوتها، فقالت غريتا لها:

ـ ماذا قال البارون حين أخبرته؟

في الواقع لم تكن تريد أن تعرف، كيف تقبل البارون فرانكو دو سانكور أمر رفضه.. لكنها لم تستطع منع نفسها، وكان عليها أن تسأل..

حركت تريشا قهوتها بتركيز، وقالت: «آه هنا المشكلة».

ـ هل سيقاضيك لنكثك وعد الزواج؟

ـ ربما.

ثم، وكأنها قررت أمراً، وضعت فنجان القهوة من يدها ثم التفتت إلى غريتا فبدت مرتبكة، ولكن عازمة النية على أمر ما:

ـ لم أخبره حتى الآن بل لا أعرف كيف أخبره كما أن أمي ستنهار.. لذا أنا بحاجة إلى مساعدة.

تراجعت غريتا لتستقيم في جلستها على المخمل الناعم، وقالت ببطء:

ـ أنت لا تعنينني..

هزت تريشا رأسها:

ـ فرانكو يعرفك، وليس في لندن من أطلب منه هذا سواك. كنت سأخبر البارونة ولكنها مريضة جداً.. أما مواجهته بنفسي فأعجز عنها. تعرفين ما هو عليه.. سيظن أن لذلك علاقة بالجرح.

أحست غريتا بالبرود: «لماذا»؟.

ـ أوه.. هذا شأنه دائماً.. وهو لا يتكلم عنه لأنه متكبر. ولكنه حين يجلس يعمد إلى أن يكون ذلك الجانب من وجهه في الظلام.. ألم تلاحظي هذا؟ والمرأة الحمقاء التي تزوجها يبدرو نعتته بالوحش وقالت إنها ترفض أن يظهر في صور زفافها. قال لي فرانكو مرة إنه سيكون لي ألبوم صور زفاف يشبه ألبوم «غرفة الرعب».. فهل سأمانع؟

ـ وماذا قلت؟

ـ لست واثقة.. لم أفكر في ذلك بعد، ولكن حين اقترب الزواج، وبدأ...

ارتجفت ثانية وذعرت غريتا، لأن تريشا فتاة عملية تحرجها الوقائع عادة.

ـ أتقصدين حين بدأ يغازلك؟

ـ بالطبع لا! إنه لا يغازل إلا صديقاته اللاتي لا يهتم لهن لأنه يظن أنه من غير اللائق ومن المهين أن يغازل زوجة المستقبل.

تذكرت غريتا وليتها لم تتذكر البارون البارد الخالي من المشاعر العاطفية. أكملت تريشا وقد عادت إلى شخصيتها القديمة:

ـ إنه يظهر روح الفروسية والشهامة. ولكنه يبالغ في ذلك، وربما هذا ما جعلني متوترة. لكن، حين تحدث عن الزفاف، لف ذراعاً حولي ثم أخذنا نتحدث عن الوقت الذي تعارفنا فيه وعن الدهشة التي سيظهرها بعض الأصدقاء، لأننا لم نكن أكثر من أصدقاء من قبل..

صمتت تفكر قليلاً ثم قالت وكأنها تستنتج:

ـ يبدو الأمر خاطئاً بطريقة ما.. فواحدنا لا ينتمي إلى الآخر.

طغى على صوتها فجأة الحزن:

ـ كنا صديقين، ولكننا لم نخلق لبعضنا بعضاً. أتفهمين ما أعني؟

أحست غريتا أنها تلقت لطمة أخرى.. كم تود أن تنكر معرفتها

بما تتحدث عنه تريشا.. لكنها لم تكن بارعة في الكذب، وفي وجه الفتاة الإيطالية ما يشير إلى أنها تعرف الرد. فقالت على مضض:

ـ أجل.. أفهمك.

ابتسمت تريشا ابتسامة مشرقة، وكأنها استراحت من حمل كبير..

ـ إذن ستساعدينني! ستذهبين إلى فرانكو لتشرحي له الأمر ولتعيدي إليه خاتمه؟

أدغش الرعب عيني غريتا اللوزيتين:

ـ لا أستطيع!

لكن كان يغمر تريشا الفرح الإيجابي:

ـ بالتأكيد تستطيعين فهو الحل الأمثل. كنت أعلم هذا منذ علمت أنك تعملين في تلك الوكالة!

ردت غريتا بقوة: «لا».

ووضعت الفنجان فوق السطح الزجاجي بطريقة تعوزها اللياقة، ولكن تريشا لم تصدقها.. وظلت مدة ثلاث دقائق تفكر بدون أن يثقل كاهلها شيء.. في الطريقة التي تستطيع فيها غريتا إيجاد فرانكو.

قالت غريتا مرة أخرى بلهجة يائسة لم تستطع تريشا أن تتجاهلها: «لا».. فسألت تريشا بذهول.

ـ ماذا دهاك؟

نظرت غريتا إلى الصالون المزدحم.. ما من أحد ينظر إليهما وهذا أمر غريب لأنها تحس بأنها كانت تصيح، وأن كل أحاسيسها مكشوفة واضحة..

عضت شفتها وقالت:

ـ اسمعي تريشا.. أنا لم أره منذ عهد بعيد.

ـ عشر سنوات.

ـ وحين افترقنا لم يكن الفراق متمدناً.

ـ ماذا تعنين بـ «افترقنا»؟ أتقولين إنك وفرانكو.. ولكنك كنت مجرد طفلة...

ـ في الثامنة عشرة.

لوحت تريشا يدها تصرف عنها الفكرة:

ـ كنت مجرد طفلة. أتقولين إنك هربت بسبب فرانكو؟ ظننتك هربت مع الرجل المرعب الذي اختاره لك عمك.. ولم يبدر في ذهني قط..

أدركت أنها مضطرة الآن إلى أن تقص على تريشا كل شيء وأغمضت عينيها.. كانت تعتقد أن ذاكرتها ضعفت بعدما دفنت، الذكرى عميقاً ولكن تفكيرها ذاك كان غباءً مطلقاً إذ لا يمكن للمرأة نسيان رجل مثل فرانكو مونتاغيو دو سانكور، أو احتقاره لها...

قالت بصوت خفيض:

ـ تريشا.. سأخبرك شيئاً ولكن عديني بألا تخبري أحداً به.

ـ لن أخبر فرانكو.

ضحكت غريتا وملء نفسها المرارة:

ـ لم أقصد هذا. أريد أن لا تذكري الأمر حتى أمامي مرة أخرى.. أنا.. أحاول النسيان وقد نجحت معظم الوقت في ذلك.

حركت رأسها بإشارة فبدت أشبه بغريتا أورك الصغيرة عندما كانت في الثامنة عشرة. في ذاك الوقت كان شعرها طويلاً يكاد يصل إلى خصرها ولكنه كان دائماً معقوداً من الخلف بوشاح أو قطعة مطاط قديمة. غير أن جموحه البريء، كان يجعلها تبدو شعثاء دائماً كتلك الجياد الصغيرة التي كان يمتطيها تلامذة تريشا الصغار.. وها الآن قد عادت المراهقة القلقة تظهر من جديد.

حدث ذلك منذ زمن بعيد.. ولكن الزمن لم يمح وجه البارون دو سانكور، أو نظرات الاحتقار التي خصها بها أو الدمار الذي أنزله بها

رفضه لها.

ولكن، كان هناك أكثر من هذا في تلك القصة، فراحت غريتا تقص على تريشا القصة بهدوء فاضطرت الأخيرة إلى أن تميل إلى الأمام لتلتقط الكلمات غير المسموعة تقريباً. ولاحظت أكثر من مرة أن غريتا كانت تنتفض جسدياً لذكريات لم تقلها.

بدأ كل شيء مع عمها غودفري أورك، شقيق أبيها. الرجل الذي كان يسرق المؤن من الشاحنات العسكرية التي كانت تقطع الحقول. ولم يكن يلائم بالطبع هذا العم ابنة أخ مراهقة. ولكن بعد وفاة أخيه وزوجة أخيه، اضطر غودفري إلى أن يقيد نفسه بابنة الخامسة عشرة ربيعاً غريتا التي حملها وطار بها إلى أوروبا، بعيداً عن الأذى.. وهناك تابعا التحرك إلى فرنسا فإيطاليا فإسبانيا ثم إلى إيطاليا ثانية.

رفعت غريتا كتفيها تكمل:

ـ حسنا.. تذكرين.. كنت قد احتفلت بعيدي الثامن عشر حين وصلنا إلى رفانا وفي ذاك الوقت التقيت أنا وأنت للمرة الأولى.

هزت تريشا رأسها فيما أردفت غريتا:

ـ قام غودفري بعدة أعمال هناك.. نظف برك السباحة، خدم في المقاهي، واعتنى بإحدى الفيلات حيث التقينا. ثم التقى آيمز داوكنز.

ردت تريشا والفولاذ في صوتها الرقيق:

ـ أذكر هذا.

كان آيمز داوكنز تاجر أملاك من نوع ما، ولكنه كان شخصاً مشكوكاً فيه. كان يحاول شراء الأراضي بثمن بخس من الناس المحليين، ثم يعمد إلى بناء الفيلات، وبيعها للأجانب بأسعار باهظة وكان غودفري قد تورط معه كمفاوض. وجاء آيمز داوكنز ليقيم معهما.

حتى ذلك الوقت كان غودفري مديناً ديناً كبيراً لرجل الأعمال

المتهور. ولكن من حسن حظه أن داوكنز لم يخف إعجابه بابنة أخ غودفري. وحدث أن سافر عمها إلى فرنسا ولكنه قال لها قبل سفره إن آيمز سيسكن معها في الفيلا لحمايتها في غيابه! ومن حماية آيمز داوكنز هربت غريتا إلى مزرعة (كونيتا) البارون فرانكو مونتاغيو دو سانكور.

أضافت تقول:

ـ هربت.. هربت من الشرفة نزولاً إلى أشجار المشمش ورحت أركض وأركض... كانت «الكونيتا» قريبة جداً، وكنت معتادة على زيارة البارونة.

ـ وهل استقبلك فرانكو؟

سألت تريشا تريد الاستيضاح. فهذا خبر جديد بالنسبة لها.. فكرت غريتا أن تخبرها بأحداث تلك الليلة ولكنها عدلت عن الفكرة قائلة.

ـ استقبلني في النهاية.. ولكنه ظن لسوء الحظ أنني دبرت بنفسي أمر مبيت داوكنز الليل معي... ولم يتركني أشك في ما يظنه بي.

صاحت تريشا باحتجاج غريزي: «لا! بالتأكيد..»

رفعت غريتا كتفيها.. كانت في غاية الشحوب.

ـ لا يهم.. فقد ادخلني على أي حال. ولم يسمح لي بإيقاظ البارونة، بل تركني أنام ليلتي. ولكنني رفضت العودة إلى الفيلا، فذهب البارون لمقابلة داوكنز.. وحين عاد..

أطبقت فمها بقوة حينما تذكرت غضب فرانكو بعد عودته من مهمته، كما تذكرت بوضوح التواء الفم الإيطالي الذي أظهر ازدراءه لها، والذي أربك براءتها. توقعت منه أن يفقد سيطرته على نفسه، وينفجر عليها بالغضب ولكنه أحنى رأسه الوسيم بوقار متكبر وأعلن أنه سيستدعي عمها من فرنسا فوراً.. وفي اليوم التالي جاء غودفري.. وأكملت بحذر:

ـ لكن غودفري فهم الفكرة بشكل معاكس فاتهم البارون بإغوائي.

كانت الذكرى تدفع جسمها إلى الانتفاض خجلاً ففي ذاك اليوم نظر فرانكو إليه باحتقار وتكبّر، حتى أن غريتا التي كانت معجبة سراً به وبعينيه الخضراوين وجسده الرشيق، وجدت نفسها ترغب في الموت.

ـ غودفري شخص انتهازي فقد حاول ابتزازه قائلاً له: إذا دفعت لي فلن أتكلم بل ذكر أنه مستعد لتركي له في الكونيتا، ليفعل بي ما يشاء..

ـ أوه.. يا إلهي.. لم يكن لدي فكرة عن هذا!

أجبرت غريتا نفسها على الابتسام:

ـ حسناً.. لا. فأنا لم أخبرك.. ولم أخبر أحداً.

ـ لكن لا يمكن لفرانكو أن يلومك.. لا يمكنه! كان يعرف تماماً أنك لست سوى طفلة...

فكرت غريتا، لكنه لم يغازلها ذلك اليوم كما لو كانت طفلة.. وعندما رأت صدمة تريشا لم تجد حاجة إلى ذكر المزيد خاصة إلى ذكر ذلك المشهد الذي قام بينها وبين البارون، والذي بدا لها يومها أنه سيكون بداية حياتها ولكنه انقلب إلى نهاية مريرة. وستظل ما دامت على قيد الحياة تذكر نظرة الاحتقار التي اعتلت وجهه حين تركتها ذراعاه.

ولتختصر الحديث قالت: «أعطاني مالاً».

ولكنها وجدت أن تلك الكلمات تجرحها وتؤلمها.

حدقت تريشا إليها بذهول:

ـ أفعل فرانكو هذا؟ أهو ذلك المال الذي حملته معك حينما جئت إلينا؟ وأنا الذي ظننت أنك أخذته من داوكنز.

هزت غريتا رأسها.. وقالت بمرارة تسخر من نفسها:

ـ لا.. بل كان ذلك أجري. لقد دفع لي لأرحل.. أترين الآن

لماذا لا أستطيع مقابلته؟

كانت ذكرى الماضي الذي عاد إليها وكأنه ما زال حياً صدمة رهيبة.

نظرت إلى هذا الفندق الفخم وإلى تريشا المرتدية ثياباً منتقاة من إحدى مجلات الأزياء التي اعتادت السينورا لونديغو على إلقاء نظرة عليها ثم نظرت إلى الناس الهازجين.

قالت تريشا: «كنت في غاية الغباء. كان علي أن أعرف..».

هزت غريتا رأسها تقاطعها:

ـ كيف لك أن تعرفي مأساتي العائلية الصغيرة؟ وأنا حاولت جاهدة أن أخفي الأمر.

ـ حين جئت إلى الاسطبل، كنت هاربة من فرانكو؟

ـ كنت هاربة من كل شيء.

ـ ألم تتصلي بعمك لتطلبي منه أن يشرح الأمر لفرانكو؟

ـ وماذا هناك للشرح؟ هل أقول إنه كان يسلب عمال فرانكو بشراء قطع الأرض الصغيرة منهم بعُشر قيمتها؟ وأنه في النهاية خدع البارون أيضاً؟

بدت الصدمة على تريشا! «أخدعه؟».

حاولت غريتا أن تظهر عدم مبالاتها:

ـ من الواضح أن البارون أوقفه عند حده، أو هذا ما قاله غودفري لي.

ـ أما زلت ترينه؟

ضحكت ضحكة قصيرة لا مرح فيها:

ـ أوه أجل، فمن الصعب التخلص من غودفري.. إنه يعتبرني بوليصة تأمين. وكلما احتاج إلى المال، هبط عليّ.. وأنا مدينة له، فهناك صفقة مشبوهة أبعدت غودفري عن انكلترا.. كانت الصفقة

لوالدي الذي ما إن مات حتى اضطر غودفري للتخفي وقتاً طويلاً.. في الواقع أدين له لأنه مد يد المساعدة لي.

نظرت إلى ساعتها:

ـ من الأفضل أن أعود إلى العمل، وللسبب عينه، فقد نظف غودفري جيوبي حينما زارني آخر مرة لذا أراني بأمس الحاجة إلى راتبي هذا الأسبوع. ولا أريد أن أعطي فنسنت عذراً لطردي.

عبست تريشا: «ظننتك شريكته».

ـ ولكن الرأسمال رأسماله، فهو من يوقع الشيكات.

وقفت.. فقفزت تريشا واقفة على الفور وقالت بسرعة:

ـ لا تذهبي لدينا ما نتحدث عنه.. لقد تغيرت.. ولم أكن أظن..

تريشا في هذه الأيام اجتماعية أكثر مما مضى، فقد بدا أن الذعر هز هذه الإيطالية حقاً.

وهذا إحساس لم تستطع غريتا إلا أن تتعاطف معه.. الخوف من البارون. ألم يعلمها الخوف منه وكان هو المعلم؟

قالت تريشا مقطوعة الأنفاس.

ـ أرجوك غريتا.. انتظري لحظة.. أنت لا تفهمين.

ردت غريتا غاضبة: «أرجوك».

وكادت تدفعها بعيداً.

كانت تعرف أن الناس ينظرون إليها وهي تهرع إلى خارج الفندق، لكنها لم تهتم فلا يهمها إلا أن تبتعد عن الماضي، ومحنه ومطالبه المستحيلة.

***

٢ ـ وحش خلف الباب

كان فنسنت يستشيط غيظاً في المكتب، لكن غريتا كادت لا تلاحظ ذلك. حينما عادت حدّق إليها قائلاً بلؤم:

ـ تأخرت بما فيه الكفاية.. أعتقد أنك ستعملين حتى وقت متأخر الليلة للتعويض عن الساعات الضائعة؟

ردت بصوت دهش «أجل».

لكن ردها المختصر زاد مشاعره غلياناً.

ـ حسناً.. أي نوع من الزبائن هي؟ هل حصلت منها على عقد؟

نظرت إليه بفراغ، فصاح بها وقد فقد السيطرة على أعصابه:

ـ أنت لا تطاقين! تظنين أن المكتب امتداد لمنزلك.. أستغرب عدم إحضارك أغراض الحياكة.

ردت بصوت آتٍ من البعيد: «أنا لا أحيك».

كان أمره مثيراً للغرابة وغضبه مدعاة للحذر ولكنه كان في غضبه سخيفاً..

ـ نحن ندير عملاً هنا. نحن مهنيون ويجب أن نتصرف بمسؤولية!

وثب شيء ما إلى عقلها، فوضعت حقيبة أوراقها على مكتبها بحذر. وقالت له بثبات:

ـ هذا صحيح في الواقع.. يسرني أنك أثرت الموضوع فنسنت.. أنا وديسموند قلقان عليك بسبب زبائنك الجدد الذين تتكلم عنهم..

فهل هم مشبوهون؟

بدا في غاية الارتباك فكادت تضحك، ثم ضاقت عيناه حتى أصبحتا نقطتين صغيرتين.

قال: «لماذا تقولين هذا؟»

تنهدت غريتا: «لأنني أعرفك فنسنت. من هم؟ وما مدى حصتك؟».

ربما لأنه فقد توازنه، ربما لأنه كان في سره فخوراً بنفسه أخبرها وأصغت غريتا برعب متصاعد. لم يكن ما يذكره يختلف كثيراً عن مشاريع غودفري.

والأسوأ من كل هذا، أن من يحاولون شراء الأرض منها هي سيدة عجوز تثق بالناس وتفتقر إلى الحكمة. تذكرت غريتا كيف كان غودفري راضياً عن صفقته مع البارونة العجوز قبل أن يوقفه حفيدها عند حده.. وارتفع الاشمئزاز في نفسها.

أظهرت اشمئزازها بدون أن تنمق كلماتها ففقد فنسنت بعض تباهيه وجلس غاضباً، لكنها عرفت أن كلامها أثّر فيه مع أنه لن يعترف بهذا.

ثم قال بلؤم:

ـ كلمات رائعة تخرج من شخص أمضى صباحه كله في تناول القهوة مع صديقة مدرسة.

حين قابلت غريتا نظرته بثبات تذكرت وجه تريشا المنهك فقارنته بفظاظة وجه فنسنت، ووجدت أين تكمن الأولويات عندها.. الصدق والصداقة، أم مهنة تافهة تعمل فيها عند رجل لا تحبه ولا تثق به؟ تنهدت.. هذا الحساسية المفرطة التي تسيطر عليها، كما يقول غودفري دائماً، ستكون السبب في هلاكها، وهذه المرة على ما يبدو ستسلبها وظيفتها التي تعتاش منها.

قالت ببرود:

ـ ليس فقط هذا الصباح، بل سأغيب بعد الظهر كذلك. لقد طلبت مني أن أعينها على أمر ما. أنا مدينة لها ومن عادتي أن أسدّد ديوني.

التقطت الهاتف واتصلت:

ـ ماغي، اطلبي فندق «إن فواي» أرجوك؟ الآنسة موندیغو.

يقع منزل دو سانكور في شارع راقٍ خلف أيكة أشجار كبيرة، تحيط به الشجيرات الصغيرة الشائكة... حالما فتحت البوابة الحديدية المزخرفة، اختفت ابتسامتها وخفق قلبها. للمنزل مظهر محبب، مظهر عائلي. ولكن فرانكو دو سانكور ليس ودوداً أبداً. إنه أنيق أجل، أنيق إلى حد الإفراط، أما وجهه فيشع الذكاء منه وأما جسده فنحيل رشيق، كما أنه لطيف.. وهو قادر على أن يكون لطيفاً متى شاء، مع أن لطفه قد يؤلم. ولكن لن يكون بينها وبينه صداقة حتى وإن لم تأت في مهمة غادرة.

كانت حتى جاءها الرد على رنة جرس الباب تشعر بتوتر شديد، ولكن عدم اللامبالاة التي رأتها على وجه المرأة التي أجابت كان أمراً مفاجئاً لها. أخذت المرأة اسم غريتا بدون أن تظهر أية مشاعر ثم طلبت منها الانتظار في الردهة ريثما تذهب لترى ما إذا كان البارون في المنزل أم لا. جلست غريتا على طرف كرسي مغطى بقماش مطرز مرتجفة مضطربة. كانت أصابعها مشدودة على حقيبتها التي قبع فيها الخاتم الثمين..

حين عادت الفتاة الباردة، نظرت إلى غريتا باهتمام أكبر..

ـ لك أن تدخلي.

ثم أشارت إلى باب في نهاية الردهة المرصوفة بالرخام فأحست غريتا وكأنها تدخل إلى غرفة إعدام، ومع ذلك تقدمت.

كانت الغرفة كبيرة، فيها غرفة خاصة بالنباتات أما بناؤها

بكتوري الطراز، سقفه مخروطي يمتد إلى الحديقة في الخارج. لا ري لماذا شعرت أنها ستسير من المنزل رأساً إلى الخارج، حيث غابة التي تحيط بالمكان. ولا تدري لماذا تشعر أنها تسير إلى قصة رائية يكمن لها فيها وحش لطيف حقود لا يعرف الصفح.

شدت قبضتيها على الحقيبة لا شعورياً وضمتها إلى صدرها.

كان يراقبها رجل صامت ضاري المظهر عبر البيت الزجاجي لاحظ حركتها، واشتدت خطوط فمه، وكانت هذه حركة قبيحة تكشف في نور الشمس الوضاح عن جانب من وجهه، فيه أثر جرح يتجه بوحشية من طرف عينه حتى زاوية فمه.. إنه جرح يدفع معظم الناس إلى الذعر حالما يرونه للمرة الأولى. لكن غريتا لم تذعر لأنها شاهدته عن كثب من قبل عدة مرات وفي إحدى المرات رأته عن قرب لم يصل إليه أحد من الناس.

تقدم إلى الأمام، برشاقة وصمت.. كانت ترتجف فلاحظ ارتجافها. كانت نحيلة متوترة تظهر شرايين يديها المرتجفة بوضوح. فعبس بسرعة ولكن ما قاله كان:

ـ أردت رؤيتي؟

ـ أجل.

كانت عيناه الغريبتان تنقضان عليها.. أحست بهما وكأنهما لهيب فازداد ارتجافها. ولكنها لم تلبث أن شرعت في الكلام:

ـ طلبت تريشا مني المجيء.. تريشا موندیغو.

رفع رأسه.. ما زال شعره أسود كالليل، ناعماً كفراء ثعلب. وتذكرت بأسى ما أحست به عندما لامست يداها هذا الشعر.

قالت على عجلة من أمرها:

ـ تريد أن تعرف أنها غيرت رأيها، أعني أنها فكرت ولم تعد واثقة. لا.. لا أعني هذا. بل أنها واثقة أن الأمر لن ينجح، وهي

آسفة.

لم يرد مضيفها.. ولكن عينيه المثيرتين لم تفارقاها البتة. دست يدها في الحقيبة تخرج علبة المجوهرات.. غير أن البارون لم ينظر إليها حتى بل تناولها من يدها بدون أن يرفع بصره عن وجهها. لم يؤثر فيه تلامس يديهما مع أنه جعل غريتا تقفز وكأنها احترقت.

حرر نفسه على الفور، ورمى العلبة على طاولة جانبية وكأنها شيء لا أهمية له، ثم أبعد نظره بسرعة. أحست غريتا بساقيها تنهاران. كانت تشعر شعور من خرج من عذاب مؤلم، فسارعت للجلوس قبل أن تنهار. ولم يبدُ على البارون أنه لاحظ لجوءها إلى أحدى الأرائك ذات الطراز الامبراطوري. كان عابساً، حاجباه الرفيعان امتدا في خط مستقيم فبدا شرساً وخطراً.

أثارها الصمت الطويل البارد فضمت غريتا يديها بقوة في حجرها لمنع نفسها من الارتجاف.. وراحت تنظر إلى أي شيء عدا ذلك الوجه البارد المغلق، حينما تكلم أخيراً، كادت تقفز اجفالاً.

- ولماذا أنت؟

لم يكن ينظر إليها. بل يحدق أمامه إلى النباتات الفاخرة وإلى الجدران الزجاجية. كان منظر وجهه الجانبي أنيقاً، ولكن الجرح الذي يشد فمه الجميل إلى اليسار كان يظهره مكشراً. كبحت ارتجافها، لتقول ببطء:

- وجدت تريشا أن من الأفضل ألا تتقابلا..

ضحك البارون بخشونة.

- تقصدين أنها جبنت من اللقاء.

- أظنها خائفة من أن تقنعها بالزواج رغماً عنها.

تذكرت جسد الفتاة الإيطالية المرتجف ووجهها الأبيض حين أعطتها الخاتم..

استدار البارون بواجهها بوجه ساخر يقلدها بوحشية:

- أقنعها؟ أغويها! أضربها؟ لا داعي إلى أن تقولي ذلك بطريقة منمقة، غريتا أورك.. أعرف تماماً ما يقول الناس عني، لكنني كنت أعتقد أن تريشا أكثر حكمة.

أدار ظهره إليها وأكمل بغيظ تقريباً:

- ولماذا أرسلتك أنت بحق الله؟

ردت بمرارة: «هذا ما تساءلت عنه أنا نفسي».

- أين هي الآن؟

- لن تحاول رؤيتها؟ لقد وعدت..

ابتسم ابتسامة ذئب:

- هل وعدت بإبقائي بعيداً عنها؟

لم تستطع أن تواجه العينين البرّاقتين وأشاحت بوجهها، فأكمل:

- آه.. هذا ما فعلت.. ما أشد تهورك!

- قلت إنني سأطلب منك.. تريشا تعسة جداً.

- هل تتوسلين شهامتي؟

ردت هامسة بسبب الخوف:

- أعرف أن القضية خاسرة، ولكنك دون شك تُكِنّ لها شعوراً ما فأنت كنت مقدماً على الزواج بها. لذا لن ترضى أن تكون تعسة.

كان يراقبها.. ثم، أخيراً هز كتفيه:

- لكن تريشا غير عابئة البتة بسعادتي، فلماذا أعبأ أنا.

لأن فرانكو لم يكن شاحباً أو مرتجفاً، ولأنه رغم انزعاجه، لم يبدُ كمن يواجه نهاية العالم، ولأنه كان غريباً بكل معنى الكلمة، وأكثر اعتماداً على نفسه من تريشا، قالت له غريتا بثبات:

- كن كريم الأخلاق.

حدجتها العينان الخضراوان، الغريبتان، اللتان لم تنسهما قط..

فارتدت وكأنها تواجه حد سيف. ثم وجدت أنه يضحك. وقال ساخراً: «كريم الأخلاق؟».

- نعم. تريشا مقتنعة أنكما لن تجدا السعادة معاً لأن كل واحد منكما لا يناسب الآخر. لكن أمها لا تصغي إليها فأنت الأمل الوحيد الذي بقي لها للمساعدة. إنها تحس...

- تحس بالخجل؟

نظرت إليه، فالتوى فمه وأكمل:

- لا تنظري إليّ هكذا. أنا أعرف تريشا حق المعرفة، ومع ذلك، كنت سأتزوجها.. لا.. لسْت بحاجة إلى أن تفسري لي تصرف الفتاة. أعرف تماماً ما تشعر به الآن.

عضت شفتها وقالت بصوت منخفض:

- إذن أظهر بعض الشفقة عليها.

انتفض فنظرت إليه وهي لا تصدق.

- إنها ذكية جداً لأنها أرسلتك.

صمتت غريتا، وأصبحت ابتسامته أكثر التواء، لكنه لم يظهر المزيد من السخرية بل هز كتفيه بسرعة وتقدم إليها بسرعته المعهودة. عندما تحدث بدا في كلامه استسلاماً:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟

- الغ موعد الزفاف، كلم أمها، وسامحها.

عندما وضع يده على عينه الجريحة بدا متعباً، وغير مهتم تقريباً..

- حسن جداً.

توترت غريتا لأنها توقعت منه الغضب والتهديد لا هذا الاستسلام الهادىء. فنظرت إليه عن كثب فإذا وجهه متجعد، وهادىء. كان ينظر إلى العلبة المربعة دون أن يلمسها. ثم، دون توقع، قال:

- أعتقد أن الأمر لم يكن لينجح يوماً.

أحست بالدموع تتجمع في مآقيها.. فهزت رأسها قليلاً لأن فرانكو دو سانكور لا يحتاج البتة إلى شفقتها، أو إلى شفقة أحد.. إنه ينطلق في الحياة ويفعل ما يريد دون أن يهتم بمن قد يؤذيه في هذا السياق. قالت بجرأة لم تكن تتوقعها منها:

- إذن، لماذا حاولت دفعها للزواج بك؟

بدا مذهولاً من سؤالها لحظة ثم انغلق وجهه مرة أخرى، وراح يضحك.

- إنه القدر.

- لا تكن سخيفاً!

- لكن هذا صحيح.. أنا بحاجة لزوجة، وتريشا تريد أن تتزوج.. هذا ما قالته لي.. كانت تعرف عائلتي، وظروفي لذا وجدنا الزواج الحل الأنسب.

كان يتحدث عن الموضوع وكأنه ليس سوى صفقة دريهمات. تساءلت لماذا يحتاج بعد هذه السنوات إلى زوجة.. وافترضت ساخرة أنه اكتشف أن له رغبات إنسانية رغم كل شيء.

ولكن من الواضح أنه لم يكن ينوي تغيير نمط حياته.. فقد كانت تريشا بالنسبة له مجرد حل، وإن كان يحبها فلن تسمح له كرامته وكبرياؤه بالاعتراف بهذا.

أشاحت بعينيها عنه وقد أرعبتها أفكارها. وبدا لها تطرفاً أن تعرف عن حياته الخاصة ما لا يعرف أنها تعرفه. قالت بجفاء: «لقد أنهيت مهمتي وعلي الذهاب».

رد بسخرية متسائلاً:

- وتغسلين يدك من هذا الأمر الكريه كله؟

امتقع وجهها بشدة: «هذا ليس شأني».

- ألا تظنين أنك جعلته شأنك بقدومك إلى هنا؟

أوه.. يا الله.. إنه غاضب إذن وهو يعتبر قدومها تطفلاً.. أما عدم المبالاة ذاك فليس إلا قناع اجتماعي قديم..

ـ تريشا طلبت مني..

ـ ولم تستطيعي رفض طلبها طبعاً.

كيف لمثل هذا الصوت الناعم أن يكون متوحشاً؟ نسيت حرجها، ونظرت إلى وجهه.. إنه يبدو غاضباً ولكنه في الوقت ذاته راضياً، وكأنه أعطي إثباتاً على جريمة كان يشك أنه قادر على حلها أبداً. حالما التقت عيناها عينيه الخضراوين ذعرت ولمّا لاحظ ذعرها التوى ثغره الجميل فجأة.

ـ لا تطيقين النظر إليّ، أليس كذلك؟

ابتلعت ريقها بصعوبة.. لا يمكنها الإنكار بعدما فضحها وجهها. رأته يلمس جرحه لا إرادياً وهي إشارة مألوفة.. فمنذ عشر سنوات، كان من عادته أن يلمس الجرح كلما تأمل خصماً، ولقد كانت بالنسبة له خصماً في يوم من الأيام. ولكنها كانت تتذكر أنه يفعل هذا وهو يتحدث إلى الآخرين أيضاً..

قال البارون بنفاذ صبر.

ـ لا حاجة إلى أن تظهر الصدمة على وجهك فلست الوحيدة التي لا تحب هذا الوجه.. أنا أيضاً لا أحبه كثيراً.. ولكنني مضطر للعيش معه.

شعرت لسبب ما لا تعرف كنهه بقلبها ينخلع من مكانه كما شعرت بأنهما يقفان على جرف صخري ضربته موجة عظيمة.. وتلاقت العيون: عيناها مذعورتان وعيناه ساخرتان لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت بهدوء:

ـ أنا آسفة لأنني تطفلت. سأذهب حالاً. لم أفكر ملياً وظننت أنني أساعدكما.

صاح بسرعة صيحة وقعت عليها كالصاعقة «لا!».

اجتاز الغرفة بسرعة وكأنه يريد أن يسد عليها الطريق، فارتبكت واستدارت لا تريد سوى الابتعاد عن وجوده المثير للاضطراب وعن الذكريات التي تثيرها فيها كل حركة تبدر عنه.

كان يقف تحت أشعة الشمس وعيناه مثبتتان عليها، الضوء ينير أثر الجرح بقسوة فيظهره بمظهر إنسان شرير حقود.

صرّت على أسنانها، من السخافة التفكير على هذا النحو.. ماذا لديه لينتقم منه؟ وإن كان هناك من عليه أن يسوّي حساباته معه فهي هذا الشخص ولكنها لا تريد ذلك، لا تريد إثارة الماضي بل جُلّ ما ترجوه هو الفرار مع أقل قدر ممكن من الضرر.

كانت عيناه في ضوء الشمس المشرقة تلمعان بعاطفة لم تفهم كنهها، ولم ترغب في أن تفهمها. قال لها بسرعة، بدون أن تفارقها عيناه:

ـ على الأقل، دعيني أقدم لك ما اعتدت على تناوله في مثل هذا الوقت.

وجذب جرساً إلى جانبه على الحائط.

ـ شاي كما أعتقد.. أم شيء آخر؟

لم يكن لديها وقت للرد قبل أن ينفتح الباب، لتدخل منه فتاة راح يلقي عليها الأوامر ثم صرفها حتى قبل أن تتمكن غريتا من الاحتجاج.

أشار إلى الأريكة خلفها. ولكنها بقيت واقفة على حذر.

ـ حقاً، الأفضل أن أذهب. يجب أن أعود إلى عملي..

دنا منها فتراجعت ولم تجد نفسها إلا جالسة عن غير إرادة منها.. كانت قد نسيت مدى طوله ومدى مهابته عندما يكون واقفاً.. وهذا بالضبط ما جعل قلبها يخفق بقوة.

ضاقت عيناه أمام تراجعها اللاإرادي، ولكنه لم يقل شيئاً، بل

جلس على مقعد مذهب ينظر إليها، ثم قال فجأة: «مضى زمن طويل».

ـ عشر سنوات.

ـ أكثر بقليل.

ـ أجل.. أعتقد هذا.

ـ لم تتغيري كثيراً.

دهشت.. لقد تغيرت إلى حد قد يعجز المرء عن التعرف إليها. هذا ما كانت تبوح لها به مرآتها، وعمها غودفري قال لها ذلك. وتريشا أيضاً لاحظت أنها لم تعد تلك المراهقة المرتبكة.

ابتسم فرانكو مردفاً:

ـ قصصت شعرك وارتديت ثياباً تناسبك.. لكن الجوهر لم يتغير.

تركيزها تبخر بدهشة صافية:

ـ بالطبع تغيرت.. كنت كجواد صغير أشعث.. وكنت تكره منظري.

رفع حاجبيه «صحيح؟».

نظرت إليه نظرة ملؤها الكره القديم.

ـ طلبت من البارونة ألا تسمح لي بارتداء البنطلون القصير في الكونيتا.

ضاقت عيناه فيها وهما ضاحكتان.

ـ أذكر هذا. لكنني لا أذكر أنني قلت إنني أكره منظرك.

أخفضت كتفيها: «لم تكن لطيفاً معي».

عاد إلى التفرس فيها مفكراً، ثم قال ببطء، وكأنه اكتشف أمراً: «لا أعتقد هذا».

ـ وكنت فظاً بملاحظاتك المتعلقة بشعري.

ضحك مرة أخرى: «أنا، ماذا قلت؟».

تذكرت بوضوح ليس فقط الإهانة، بل الظروف التي قيلت فيها، فاشتد ضغط يديها على مقعد الأريكة.. كانت متأكدة من ضحكته الرقيقة، إنه أيضاً يتذكر التفاصيل.. وقال مداعباً بحذر:

ـ ما كان يجب أن تتركي ذلك العُرف طليقاً.

كانا في سيارته، في تلك المركبة المذهلة التي تظهر عبثه وغناه وكان سقفها مفتوحاً فلما انعطفت بهما بسرعة طارت خصلات شعرها الطويل على وجهه.. كان يومذاك، ورغماً عنه يعيدها إلى منزلها بعد قيامها بزيارة لجدته. تذكر أنه في تلك اللحظة صاح بلؤم:

«لماذا لا تضفرينه كما يضفره الأطفال الذين أنت منهم؟».

أرعبتها تلك الذكرى التي لا تزال حية في ذاكرتها.

ـ لكنني لم أقل انني لا أحبه. كان يشكل فقط خطراً على قيادتي.. لماذا قصصته؟

ـ عليّ أن أكبر يوماً ما.

تجهم وجهه: «وهل كبرت حقاً بحق الله؟».

انفتح الباب فدخل منه رجل مكتنز ذو وجه ودود، يحمل صينية.. للوهلة الأولى لم تعرفه غريتا ولكنها لم تلبث أن صاحت «جوليو».

ابتسم لها: «سينوريتا».

لكنه لم يكن مسروراً برؤيتها كما كان يسرّ في الأيام الخوالي. صب الشاي وقدمه إليها، كان لونه ذهبياً شاحباً وعطره لذيذاً وكان قد سُكب في فنجان من البورسلان الفاخر، ذكرتها رقة البورسلان كم كانت خرقاء في منزل البارونة.. خرقاء لا مكان لها هناك. وعاودها الإحساس نفسه.

لم يبدُ على البارون أنه لاحظ هذا.. فراح يحتسي الشاي بنفاذ صبر حاد أحرج غريتا. إن كان لديه موعد آخر يتوق للذهاب إليه،

فلماذا أصرّ على تقديم الشاي؟

فيما كان جوليو يقفل الباب وراءه بهدوء، قالت:

ـ يجب أن أذهب بسرعة.. عملي..

ـ وكالة الأملاك تلك؟

دهشت.. ثم عرفت أن تريشا أخبرته بلا أدنى شك أنها تعمل هناك. فهزت رأسها وسأل:

ـ أتعملين هناك منذ زمن طويل؟

لم تعجبها لهجة السؤال، فردت ببرود: «منذ بعض الوقت».

ـ أتعرفين رب عملك منذ زمن؟.

ـ باشرت العمل معه قبل أن نؤسس الوكالة.

وضعت الفنجان من يدها، وأمسكت بحقيبتها:

ـ شكراً للشاي.. يجب أن..

ـ إذن، إنه ليس صديقاً شخصياً لك؟

ـ شخصياً؟

ـ صديق العائلة.. عمك مثلاً؟

ـ لم يلتقيا قط.

ـ لا..؟ أو لم تقدمي الواحد إلى الآخر؟ إذن هو ليس حبيبك؟ أنت مديرة أعماله؟

ـ ولماذا هذه الأسئلة؟ أجل أنا مديرة أعماله.. وقد ساعدت في تأسيس الوكالة لذا أنا واحدة من مجموعة الإدارة.. وهذا لا يعني أننا.. أن فنسنت..

ـ اتخذ منك عشيقته؟

ردت ببرود:

ـ هذه عبارة عفا عليها الزمن ثم إن الأمر لا يعنيك، كما أن شؤونك لا تعنيني. لقد اعتذرت لك عن هذا، فماذا أستطيع أكثر؟

كان تعبير وجهها منقسماً بين السخط والرجاء. فضحك، وقال بعد تفكير:

ـ سمعتك حسناً، لمَ لا؟ فلنبرهن ذلك.

ـ لم أقصد هذا...

تجاهل احتجاجها:

ـ تناولي برفقتي العشاء الليلة، لدينا ما نتحدث عنه.

ارتجفت قليلاً، لكنها ردت بحدة:

ـ أوه.. لا.. ليس لدينا شيء.

ـ ولكن لم تشرحي حتى الآن السبب الذي دفع تريشا إلى إرسالك أنت لإجراء صفقة المفاوضات الدقيقة كما أنني لم أعطك رداً تحملينه إليها.

نظرت إليه بريبة، ثم نظرت عن قصد إلى العلبة البرّاقة على الطاولة خلفه:

ـ لا أرى أن الرد ضروري.

ـ ألا ترين هذا؟ ولكنني متأكد أن تريشا تخشى أن أثير فضيحة، أما أنا فلا تهمني الفضائح لأنه مرت بحياتي فضائح كثيرة.

كان يمرر إصبعه على جرحه، وكأنه يتحسس حدّ خنجر.. برقت أمامها مرة أخرى صورة حية رأتها منذ عشر سنوات، وكانت مذهلة في حدتها.. كان يومذاك ينظر إليها بهدوء، يقومها، وكأنها عدوة له. ثم قال شارحاً:

ـ لكنني مستعد أن أكون شهماً خاصة إذا ما أقنعني أحد.

كان في عينيه حلم أو دلائل كابوس.. ولم يدهشها هذا، ابتسم لها ابتسامة ساحرة وقال:

ـ تناولي برفقتي العشاء الليلة، واقنعيني؟

www.7akawyna.com

٣ ـ عندما تزغرد المشاعر

لم تتمكن غريتا من الصمود أمام القضاء والقدر فارتدت ملابس السهرة بعناية فائقة استعداداً للخروج مع البارون. عندما انتهت كان سريرها قد امتلأ بالثياب المرفوضة، وكانت قد أعادت ترتيب شعرها للمرة العاشرة، أو يزيد.

لم تحزر إلى أين سيصحبها للعشاء، ففي رفانا لم يخرج معها قط. وحسب الشائعات المتداولة في ذاك الوقت لم يكن قد شوهد أبداً يتعشى مع أحد في مطعم من مطاعم المنطقة. كان يتناول طعامه في الكونيتا، متجنباً الظهور العام، حتى في أفخر الأماكن.

فكرت في أنه لن يصحبها طبعاً إلا إلى مطعم أنيق لذا أفرغت خزائنها بحثاً عن الذوق السليم، وانتهى بها الأمر إلى نتيجة لم ترضها.

ارتدت بذلة حريرية شاحبة اللون وبلوزة جيدة هي الوحيدة لديها. كانت من الساتان المزين بالرسوم الملون بلون الرمان الناضج.. كانت الثياب تعكس لون شعرها اللماع، وقد أبرز اللون الرائع جميع الألوان النحاسية فيه. هزت رأسها وهي تنظر إلى المرآة. منافية للذوق؟ لا.. إنها تتوهج كنار الخريف.. ولم يكن هذا بسبب اللون بل وجهها كله انقلب حياً.

حاولت تلطيف وجهها بشيء من الماكياج، أكثر مما تستخدمه عادة ولكن لم يجد ذلك نفعاً.

نظر إليها طيفها في المرآة فإذا العينان الدعجاوان تلمعان انفعالاً وإذا الشعر الناعم الممسد إلى الأعلى رائع ووضعت قرطاً من «التوباز» المتعدد الألوان، آلمها أن يظهرها أكثر أناقة. ولكنها لم تستطع القيام بشيء للون وجنتيها الرقيق أو لإشراقة عينيها.. وما استطاعت كذلك التخفيف من ارتجاف شفتيها المغري.

انحنت أكثر نحو المرآة.. في الواقع هذا الثغر يفضحها تماماً. مسحت اللمعان الذي وضعته على شفتيها ولكن هذا لم يؤثر بل تركهما أشد احمراراً من قبل.

وهكذا انطلقت منزعجة.

كانت قد رفضت السماح للبارون بمرافقتها إلى منزلها لاصطحابها ذلك أنها أحست بضرورة إخفاء عنوانها عنه، وتوقعت منه المقاومة ولكنه لم يفعل. وها هي الآن تنطلق إلى منزله.

كانت متأخرة قليلاً ومع ذلك راحت تتأنى فهي لا ترغب في الوصول إلى هدفها بسرعة، وهذا غير عادي بالنسبة لها لأنها دائماً دقيقة بمواعيدها.. ولكن هذا لن يقلق البارون، فالقلق بشأن الوقت ليس صفة من صفات الإيطاليين وهذا أمر كانت تراه واضحاً عند البارونة.

لذلك دهشت حين فتح البارون لها الباب بنفسه حتى قبل أن تقرع الجرس، وكاد يصطدم بها.

ـ أين كنت؟ هل أصابك مكروه أو ضللت الطريق؟

نظرت إلى ساعتها بخبث:

ـ بل أسأت احتساب الوقت.

ـ ستتأخر قليلاً، إنما لا أهمية للأمر.. هيا بنا الآن!

وقبل أن يتركها تضع قدمها على عتبة الدار أعادها إلى الطريق أمام المنزل حيث وقفت سيارة فخمة.. فنظرت غريتا إليها ومشاعرها

مشوشة.. من الواضح أن البارون لا ينوي أن يقود السيارة بنفسه.. لذلك فالحديث الخاص في السيارة مستحيل.

ابتسم لها جوليو من فوق كتفه في الوقت الذي راح فيه البارون يساعدها على الصعود. عندما استوى إلى مقعده أخذ يلقي على سائقه تعليمات. شاهدت غريتا جوليو يطرق برأسه، ثم يصعد إلى السيارة، وما هي إلا ثوان حتى انطلقت بهم السيارة بين ازدحام السير في شوارع لندن، ثم إلى خارجها، باتجاه مغيب الشمس على الطريق الدولية.

نظرت غريتا إلى الرجل الجالس قربها فرأته هانىء البال. ولكن شيئاً ما، لم تعرفه أنبأها بأنه متوتر وكأن محنة ما ستواجهه. ارتابت هنيهة أن يتوسل إليها لتطلب من تريشا أن تغير رأيها، ولكن نظرة واحدة إلى ذلك الوجه العنيد جعلتها تعكس الفكرة. فهذا ليس برجل يتوسل، حتى وإن كانت سعادته على المحك.

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت أول ما بدر إلى ذهنها:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

نظر إليها:

ـ كنت أتساءل متى ستسألين، فربما أقوم بخطفك وأفرّ بك إلى إيطاليا.

ابتسمت غريتا، فهذا هو نوع المزاح الذي تستطيع التعامل معه.. وقالت:

ـ هذا إن لم نكن ذاهبين إلى هناك عبر طريق آخر.

ـ آه.. تملكين حساً لمعرفة الاتجاهات.. وهذا أمر نادر الوجود في النساء.

ـ باستطاعتي قراءة اللوحات على الطريق.

ـ إذن، فأنا لم أكتشف أول قارئة خرائط في التاريخ!

ـ هذا تعصب.. فالنساء بارعات كالرجال تماماً..

أدار رأسه إليها، وهو يمدد ساقيه بعيداً عنه، ونظر إليها بكسل:

ـ تعتقدين أنك تعرفينني نِعْم المعرفة، غريتا الصغيرة؟

لم يكن قد ناداها بغريتا الصغيرة بمثل هذه اللهجة من قبل، ولا منذ عشر سنوات حتى. فاستقامت في جلستها لتقول:

ـ أنا لا أعرفك أبداً.. ولا أريد أن أعرفك.. إلى أين نذهب؟

ضحك بهدوء ولكنه أجاب: «أتذكرين ادغار وجانيت؟»

انتفضت.. كانا زوجان شابان يديران فندقاً صغيراً في أحد المنتجعات وكان أدغار قد استخدمها للعمل في المقهى في وقت من الأوقات.. وكان هو أول من حذرها من المشاكل التي سيرمي غودفري فيها نفسه إن نجح في الاحتيال على البارون دو سانكور.. في تلك الأيام لم تفهم ما كان يقول..

أردف البارون: «أرى أنك تذكرتهما».

أسندت كتفيها إلى المقعد الجلدي الفخم وقالت: «طبعاً».

ـ حسناً، لقد عادا إلى انكلترا منذ سنتين، وهما يديران نُزُلاً ريفياً قرب النهر.

سألت بأدب: «وهل أعمالهما ناجحة؟».

ـ جداً.. فهما يقولان إن مطعمهما محجوز دائماً وقد أصبحا مشهورين.

ـ إذن كيف حجزت طاولة في مدة قصيرة؟ هل السبب هو شهرتك ونفوذك مرة أخرى؟

هز رأسه الأدكن ضاحكاً:

ـ لقد استثمرت بعض مالي في أسهمه.. لذلك يؤمنان لي دائماً مكاناً.

تمتمت: «وما الجديد في هذا؟».

التفت إليها يدس ذراعه فوق المقعد خلفها وقال بصوت خال من

الغضب ولكن ملأه الفضول.

- كنت تعترضين حتى في ذلك الوقت على ما يقدمه لي الناس من خدمات، فلماذا؟

واجهته مباشرة لأنه لا يمكنها أن تنكر قوله فالأمر صحيح.. وله الحق في رد.

قالت ببطء: «أعتقد أن السبب هو أنك تتوقع دائماً أن يقدم لك الآخرون ذلك. ولم تضطر يوماً إلى أن تجرّب..»

لمعت عيناه الغريبتان، بألوان خضراء وصفراء وهز رأسه:

- أنت محقة. لا تعرفينني جيداً.. فأنا لم أجرب.. كما تقولين.. لم أجرب جاهداً كما فعلت في ذلك الصيف اللعين..

صمت وأدار وجهه عنها. كانت تحس بتوتره وكأن شخص ثالث معهما.. أخيراً ضحك وهز كتفيه:

- حسناً.. كان هذا منذ زمن بعيد.. أخبريني ماذا كنت تفعلين في هذه الفترة؟

اختصرت غريتا وصف ما مرّ بها ابتداء من الصراع للحصول على المؤهلات المناسبة في سبيل عمل لائق وصولاً إلى الدروس الليلية المتأخرة وإلى المعركة المتواصلة ضد الفقر وانتهاء بالشقة التي تسكن فيها الآن وحدها دونما زميلات يستخدمن الماء الساخن كله، أو يعدن بضجيج صاخب في الثالثة صباحاً. ضحك فرانكو لذكرياتها وأمعن التفكير في ما بذلته من جهود للتعويض على نفسها عن سنوات ترك التعليم. ثم علق:

- من الواضح أن لك إرادة قوية.

ضحكت: «لا أحب الهزيمة».

- أرى ذلك بوضوح. أيعني هذا أنك طموحة؟ طموحة مهنياً؟

- أريد عملاً جيداً. ولا أهتم ما إذا انتهى بي الأمر وصورني في

المجلات واسمي في الصفحات الأولى.

هز فرانكو رأسه بسرعة:

- أفهم هذا تماماً. فنحن نتشابه في هذه النقطة فأنا أحب دائماً أن أنهي ما بدأته.

التفتت إليه بسرعة ولكنه كان ينظر أمامه وفمه مشدود، فلم يبد أن لكلماته معاني خفية.

- إذن أنت سعيدة حيث تعملين؟ ولكنها ليست وكالة كبيرة؟

عضت شفتها:

- لا أفكر في وكالة أكبر منها بل في ما هو أفضل.

ارتفع حاجباه الرفيعان، فسارعت تقول وكأنما لنفسها:

- لكن بعض الأعمال التي يقوم بها فنسنت لا تعجبني كما لا تعجبني الطريقة التي يستخدمها لتنفيذ بعض المشاريع.

نظر إليها فرانكو بحدة لكن ما قاله كان: «هذا صعب».

التفتت إليه: «وأنت سنيور ماذا فعلت منذ لقائنا الأخير؟»

تمتم بسخرية: «سنيور».

لكنه سمح لنفسه بأن يفشي لها ذكرياته مع أن ملامحه وكلماته كانت جادة وصارمة حين ذكر أخاه.

- كان الحادث صدمة لنا جميعاً.. لم يستعد والدا جوانا عافيتهما حقاً لذا أخذت الصبي.. لكن..

- لكن ماذا؟

كانت السيارة تسير وسط حقول ممتدة تلمع تحت نور المساء وكأنها غطاء متعدد الألوان في إطار أخضر لا ينتهي.. كان المنظر جميلاً بحيث أحست غريتا بأنه غير واقعي وبأنهما يسافران عبر الزمن والفضاء، إلى حيث يمكنهما الالتقاء كندّين دون ظلال الماضي أو المستقبل الذي يهز ثقتهما بنفسيهما.

هز كتفيه بشكل معبّر، وقال:

ـ هذا في الواقع لا يحل المشكلة.. فاليكسي لا يطيق رؤية وجهي.

أحست بصدمة: «ماذا».

كانت ضحكته خشنة: «الأمر لا يدعو للغرابة. فهو لم يكد يدخل سن المراهقة ولم يتعلم بعد إخفاء مشاعره».

سألت متأثرة:

ـ ألست مخطئاً؟

أدار فرانكو وجهه ينظر إلى مناظر الطبيعة الرائعة وقال مكتئباً: «لا».

ـ ولكنه صغير السن وسيعتاد..

قاطعها البارون بهدوء:

ـ غريتا.. إنه لا يطيق رؤيتي. يشيح بصره إلى السقف، النافذة، الطبق أمامه.. وحينما أدخل غرفة ما، يغادرها في أسرع وقت ممكن. وإذا أرسلت بطلبه، ظهرت عليه بوادر السقم.

مدت يدها باندفاع غريزي لتلمس أصابعه المتوترة على ركبته فانتفض. أسرعت تبعد يدها فوراً، وأكمل متثاقلاً:

ـ أحاول أن أتجنبه، طبعاً، فلا فائدة من تعذيب الولد المسكين. لكنني اضطر أحياناً للذهاب إلى المزرعة وأجد أن من العسير تدبير زيارة يقوم بها إلى مكان آخر أثناء وجودي.

تطلعت غريتا إلى صورته الجانبية الشبيهة بالصقر، وقالت بلهجة عاجزة:

ـ أنا آسفة.

عندما هز كتفيه نظرت إلى وجهه الذي بدا غامضاً.. كانت الندبة

في الجهة الأخرى فأدركت أنه قبل الإصابة كان وسيماً بشكل مذهل، وهذا ما لم تفكر فيه قط. ونظرت إليه مسحورة وكأنما لاول مرة، تكتشف روعة تكوين خديه وسحر تجويف عينيه ورقة الفم الرائع. إنه وجه يعود مظهره إلى القرن السادس عشر.. وجه لأمير بحار متقشف، عالم، أو وجه لعالم وشاعر.. ومحب؟

ابتلعت غريتا ريقها، مسرورة لأن البارون لا ينظر إليها.. وطفقت رعشة حارة تسري في بشرتها، فغيرت جلستها بقلق، فيما كانت السيارة تنعطف لتخرج عن الطريق العام.

ظلاً بعد ذلك صامتين حتى وصلا إلى وجهتهما. حين دخلا الطريق الداخلية، حبست غريتا أنفاسها بابتهاج صريح.. وقال لها البارون:

ـ كان قصراً يعود إلى العهد الادواردي. ولكنه كان خراباً حينما وجده ادغار، مع أن الزجاج كله لحسن الحظ كان سليماً. أظن أن ما رُمِّم منه سيعجبك.

كان في الخارج سيارتان فخمتان فيهما سائقان منتظران. باب المدخل مضاء ومفتوحاً ولكن فرانكو تجاهله، وقادها عبر ممر يظلله الياسمين وحين توقفا حبست غريتا أنفاسها..

فقال برضى هادىء: «نعم؟».

كانت الأمسية رائعة، إنها تلك الساعة الرمادية بين المغيب والليل، حين يكون الهواء عابقاً بأريج الأزهار، حيث تظهر البراعات المضيئة.. كان هناك ثلاث مرجات، كل واحدة منخفضة بعض الشيء عن الأخرى. ففي المرجة السفلى طاولات حديدية مشغولة يدوياً يسمع منها همهمة لطيفة.

لامس فرانكو مرفقها، مشيراً إلى ممر مكسو بالطحلب يقودهما إلى مكان بعيد عن المنزل. تنهدت وهي تشعر بأنها في حلم ولم تستطع

إلا أن تستسلم لسحر المكان. . أجلسهما ساقٍ متحفظ على مقعد مصنوع من أغصان الشجر تحت أيكة من شجر الصفصاف ثم حمل إليهما الشراب والخبز المحمص أما هما فكانا يلقيان نظرة على لائحة طعام بحجم صك ملكي من العصور الوسطى.

بعد أن اختارا ما يريدان تراجع الساقي منحنياً، أما البارون فأشعل سيكاراً رفيعاً، متجاهلاً الطعام، مع أن غريتا قضمت قطعة من فطائر الجبن الصغيرة. . سحب فرانكو نفساً عميقاً من سيكاره، ثم أطلق الدخان في الهواء فوق رأسه. . فطاف الدخان فوقهما في الهواء النقي ولكن رائحته المارة ذكرت غريتا «بالكونيتا» وبرائحة مكتبته الغامضة: جلد، دخان حطب، والقليل من دخان سيكاره. . شعرت رغماً عنها ورغم روعة المنظر بالتوتر فنظر إليها بسرعة: «تشعرين بالبرد؟».

هزت رأسها نفياً، فقال بإصرار: «هل ندخل؟»

ـ لا.

أبعدت شبح السنوات العشر الماضية عنها وابتسمت له فرفع حاجبيه. . قالت له:

ـ المكان أجمل من أن نتركه وندخل.

لاحقت عيناه إشارتها إلى الحديقة الساحرة، والساقية الصغيرة، فإذا هما قاتمتان في عتمة الغسق. رفعت رأسها إلى الوراء، تنظر إلى السماء التي بدت بعيدة مرصعة بآلاف الألماسات المشعّة. قالت ببطء:

ـ أتعلم. . أحس وكأننا خارج الزمن. . أتفهم ما أعني؟

سحب نفساً آخر من سيكارته، ثم قال:

ـ لست واثقاً. . اشرحي لي.

ـ أشعر وكأنني أنظر عبر تلسكوب إلى عالم سحري بل أشعر وكأنني خرجت للتو من سجن وأُعطيت ترخيصاً لأفعل تلقائياً كل ما أريد.

ران صمت طويل. . وازدادت العتمة خلفهما. كانت أحاديث الآخرين فوق المرجات قد تلاشت إلى ما يشبه الهمهمة. أخيراً سألها بصوت غريب: «سجن؟».

ـ مجرد تعبير كلامي.

ابتسم: «أجل. . أفهم هذا ولكنك لا تسمحين لنفسك عادة بأن تتصرفي بعفوية».

هزت رأسها فتهادى الشعر الحريري حول وجهها:

ـ لا. . فهذا اسراف في الرفاهية.

ران الصمت الحاد من جديد. كان كمن تلقى كلمات تدور وتدور في رأسه ثم قال:

ـ أظنك تغيرت أكثر مما ظننت.

تحركت تريد أن تتحداه، وفي الوقت نفسه تريد أن توقفه عند حده، لكن الرغبتين المتناقضتين سرعان ما توقفتا حالما عاد الساقي الذي قال إن مائدة العشاء جاهزة متى شاءا تناول الطعام.

رمى فرانكو سيكاره، ثم قدم إليها يده بحركة وقور لها مغزاها المشرف. أمسكتها على مضض قبل أن يسيرا في ممر مظلم وكأنهما عاشقان. كان المطعم في مكان يبدو أنه كان في الأصل قاعة استقبال العائلة الادواردية التي كانت تملكه. . وكان هنا المزيد من الناس أما الأصوات فكانت أعلى من تلك. تطلعت غريتا إلى هذا المكان الذي لم يحدث قط أن وطئت قدماها مثله: في أحد أطراف الغرفة كان هناك مجموعة كبيرة، الرجال مرتدون سترات السهرة، والنساء مرتديات الحرير ومحليات بالجواهر. . وفي زاوية بعيدة منزوية، شاهدت وجهاً مألوفاً شهيراً، تعرفه من شاشة التلفزيون. كان في كل أرجاء هذا المكان جو من الأناقة العفوية والترف والبذخ. . وأحست بالابتسامة ترتفع إلى ثغرها وهي تتبع الساقي إلى طاولتهما. . فقال لها البارون:

ـ أنت تضحكين.

هزت رأسها نافية، فأخذ ينظر إليها كالمسحور. كان شعرها رغم بساطة ثيابها يشع كجوهرة، وكانت الشموع فوق القماش الأبيض الناصع تنعكس في أعماق عينيها اللوزيتين.. بدت مستغربة عابثة ماكرة قليلاً:

ـ لنفسي فقط.

ـ لماذا؟

ازدادت ابتسامتها:

ـ ستذهبين إلى حفل الرقص.. سندريلا.

أطبق الحاجبان الرفيعان معاً:

ـ أنت لست كسندريلا، لا تحطي من قدر نفسك.

ضحكت غريتا ثانية بسعادة، ثم قالت بحزم:

ـ بل أنا سندريلا، في رحلة إلى القمر وأراني أحب كل لحظة من هذه الرحلة.. فلا تفسد عليّ وهمي.

انحنى قليلاً بسخرية، وقال باسترخاء:

ـ حسن جداً.. سنعيش الليلة في الخرافات.

بعد ذلك، انطلق يسحرها ويفتنها بفتنة ملموسة، جريئة، وأنيقة كادت تدفعها إلى شرك من خيوط عنكبوت دافئة.

حظيا بطاولة مستترة عن العيون في زاوية قرب أبواب زجاجية، مفتوحة على الشرفة حيث الليل العابق بالأريج العطر، أريج الياسمين والورد.. من خلفهما تهادت أصوات رفاقهم في المكان مرتفعة تارة ومنخفضة طوراً بدون مبالاة.. ولكن ما كان يأسر عينيها هما هاتان العينان الخضراوان الفتانتان.

أحست غريتا وكأنّها تندفع نحو البحر، يحثها ملاّح قوي واثق من نفسه أكثر من ثقته هو بها. وكانت تشعر أنها تتبع فرانكو نحو أعماق

ذلك البحر حذرة آنا وسعيدة أحياناً كما شعرت بالأصوات الهازجة حولهما تتلاشى تتلاشى حتى لم يعد في هذا المكان إلا هي وهو. وارتجفت لكن ليس من البرد.

جاء الساقي حاملاً القهوة ثم تبخر العالم الواقعي ولم يشعر أي منهما به ووجدت غريتا نفسها تنظر إلى عيني فرانكو وكأنهما تنومانها.. وشعرت به يلفظ اسمها همساً رقيقاً.

سرت قشعريرة صغيرة من الشوق إلى كيانها كله، فجلست مستقيمة. ما هذا؟ شوق؟ شوق؟ إلى هذا الرجل؟ إن هذا ليس حقيقياً. إنه جزء من الخيال الذي تطوف فيه..

ولكن، كان هناك وهج نار في العينين الخضراوين اللتين ما عادتا باردتين. لا.. ليس هذا بخيال.. ودون أن تصدق ما ترى، راقبته يمد يده عبر الطاولة إليها.. إنه طلب.. وفي الحلم، مدت يدها إليه.. تحس بالأصابع الطويلة القوية تلتف حول يدها التي انتفضت أناملها الرقيقة، وكأنما يكاد يحطم العظام الرقيقة بقوة امتلاكه.. جف حلق غريتا وأما هو فمال إلى الأمام يقول بإلحاح:

ـ إبقي معي.. هنا.. الليلة!

***

٤ ـ صيّاد الرحمة

لم يكن في المكتب عندما وصلت هوارد أو غيره. . وهذا ما كانت غريتا تتمناه. فهي لم تنم بعد عودتها إلى لندن ليل أمس. . . لذا استسلمت يائسة للخروج إلى الشوارع البراقة كالماس في الصباح الباكر. فإن عجزت عن النوم فلما لا تلجأ إلى العمل على الأقل، فربما فيه تجد ما يحد مدّ ذكرياتها.

شقّت طريقها في تلال من العمل تركها لها فنسنت. . كان هناك عمل كثير، أكثر مما يحق له أن يضعه على كاهلها. لكنها أنجزته. فقد كان للعمل فائدته. . وسرعان ما انتهت.

وتقدمت نحو ماكنة القهوة، فلمحت صورتها في المرآة التي تعلوها. لم تكن تبدو أنها هي نفسها، ففي وجهها حدة ما وعلى ملامحها توتر وقلق وعلى ثغرها ارتعاشة حزينة. ضغطت راحة يدها على فمها حتى تألمت. هكذا كانت تبدو ليل أمس، مصدومة مصعوقة، وكأنما تعرضت لذروة الحمى ثم انفجرت.

عندما صبت لنفسها القهوة لاحظت أن الارتعاشة ما تزال تلازم يديها. حاولت أن تقول لنفسها إن السبب يعود إلى السهر الطويل الذي لم تعتده ولكنها لم تصدق نفسها. مهما فعلت لن تستطيع إلا أن تلوم نفسها. كانت مسحورة ليلة أمس لكن ذلك عائد للفتنة التي أظهرها لها البارون.

نظرت إلى شحوبها بكراهية، ثم جلست. . حسناً لقد انتهى الأمر. . أرجوك يا إلهي أنهه. لن يسعى إليها ثانية. . ليس بعد أن. .

إنه لا يعرف أين تسكن، هذا ما ذكرت نفسها منذ أغلقت الباب وراءها ليلة أمس، وذلك بعدما أرسلها فرانكو بسيارته مع السائق وبعدما مكث في الغرفة التي أمنتها له الإدارة بناء على طلبه.

أخجلتها الذكرى، فوضعت فنجانها من يدها، وأسقطت رأسها بين يديها، لا تظن أنها ستنسى يوماً كلمة قالها أو توتراً شعرت به أو لحظة ارتباك سيطرت عليها.

كان قد حقق كل شيء بسهولة حتى كادت لا تصدق أنه وجد تلك الغرفة والأنكى أنها لا تصدق كيف سارت معه كالمنوّمة مغناطيسياً. ولو فكرت في الأمر لأدركت أنها ليست المرة الأولى التي يبقى فيها البارون هناك، وليست المرة الأولى التي تطيع فيها سيدة رغبته ولكنها كانت تسير على غير هدى كعمياء غبية.

لم تلح على الغرفة ملامح غرف الفندق لأنها كانت مفروشة بأثاث أنيق وكان هناك خزانة من خشب السنديان ومشاجب خشبية ومصباح زجاجي متقن الصنع وُضع على طاولة السرير رامياً ضوءاً خافتاً في الغرفة. . عندما ضمها بين ذراعيه لم تعد ترى من وراء العينين المغمضتين إلا انعكاس مشاعرها المتلهفة.

لم تنس بعد عشر سنوات تأثيره فيها فغرقت بين ذراعيه وكأنها لم تتركهما قط. كان يتمتم كلمات بالإيطالية لم تفهم منها شيئاً وكان يلفظ اسمها مراراً وتكراراً.

هل قالت شيئاً؟ لا شك أنها قالت. . فلا يمكن أن تتعلق به بعجز وهيام لفرط سعادتها، دون أن تتكلم. . . لذلك لا تلومه فهي لم تقل لا. . ولم تتصرف كمن يريد الرفض.

أغمضت عينيها بقوة بعدما لمعت الصورة التي لا ترحب بها أمام عينيها حية مخيفة بحيث لا يمكنها إنكارها، وشدت شعرها حتى كادت تخلعه من منبته.

كان هو من تردد وتراجع يسأل:

- غريتا.. صغيرتي.. هل أنت واثقة؟

نظرت إليه وهي لا تفهم لأنها كانت ما تزال متشبثة بالقصة الخرافية. فتابع:

- هل هذا حقاً ما تريدين؟ يجب أن أتأكد.

كان الجرح حياً وكان نبض صغير يخفق في عينه، فامتلأت عيناها دمعاً وسألت بحدة هامسة: «لماذا».

أساء فهم قصدها، فقال:

- لأنني لن أقدم على إغوائك، فعلى ما تريدين القيام به أن يخرج بملء إرادتك.

امتدت البرودة إلى بشرتها.. ولكنه لم يلاحظ بل سحب نفساً طويلاً وأكمل:

- كنت تتكلمين عن الخيال وعن الوهم، وقلت إنك لا ترغبين في الاسترسال طويلاً، وأنا أوافقك الرأي ولكن للخيال ثمناً.. فهل تفهمين قصدي؟

تراجعت ذراعاها عنه، وأحست بالبرودة تزحف إلى جسدها:

- ماذا تقول؟

- أقول فقط إن القرار عائد إليك. وهذا ثمن أتحمله أنا، إنما لا أتحمله عن أي شخص آخر. أتفهمين غريتا؟ أنا لا أستطيع اتخاذ القرارات عنك.

إنه يعني أن هذا مجرد انجذاب عفوي.. وأنه لا يرغب فيها إلا على أنها بديل عن تريشا. فدفعته عنها ووجدت نفسها مضطرة إلى

لملمة شتات نفسها فسارعت إلى الحمام تختبىء فيه. وهناك على ضوء الحمام في المرآة بانت وجنتاها حارتين فأسرعت تلقي الماء البارد على وجهها وعلى معصميها ولكن الماء البارد لم يغير شيئاً لأن مظهرها بقي مظهر من ضرب بقوة. حين عادت إلى الغرفة نظر إليها متجهماً ولكنها نظرت إليه وقالت بوضوح:

- أرغب في العودة إلى منزلي.

- أنت تغيرين رأيك بسرعة.

- أشك في أن للرأي علاقة بهذا.

- ربما لا.. لكن ألا يمكنك أن تشرحي لي السبب؟

أيسخر منها؟ رمقته بنظرة ملؤها الكره.

- ألم يكن الأمر واضحاً.. أنت تذكرني بالثمن.

- وهذا خطر عليك؟

- لا.. بل أنه لا يستأهل التفكير أبداً.

- وهكذا ترتدين إلى سجنك؟ أتخيفك الحرية؟

ردت باقتناع:

- هذه ليست حربة بل خيال محض، أرفض المزيد منه. لا أدري لماذا بدأت به فرانكو.. أما الآن فلا أريد إلا أن يُولي بعيداً بعيداً.

- ولماذا بدأت به؟ فلم أكن أنا البادىء بل باشرنا به نحن معاً.

صمت قليلاً، ثم أكمل وقد التوى فمه، وكأنما يقول لنفسه:

- كان أمامي سيدة فظننت لبرهة أنني ما عدت وحيداً.. ثم خافت..

إنه يتكلم عن تريشا وهذا ما آلمها. تقدم إليها فذعرت، ردد اسمها بنعومة، وكأن صبره قد نفد ولكنها ارتدت أكثر فأكثر ثم قالت:

- إن لمستني ثانية، فسأصاب بالغثيان.

وقف فرانكو كالميت. كانت تعابير وجهه توحي بأنه لا يصدق ثم

لم يلبث أن تغير جموده وكأنه تذكر شيئاً فسخرت منها عيناه قبل أن يرتد عنها.

ـ سأطلب لك السيارة.

حين وصل جوليو إلى الباب لم يرافقها فرانكو، ولم يبعد نظره عن الحديقة المظلمة ولم يودعها حتى.

وها هي الآن في المكتب تشعر بالدموع تترقرق على وجهها، فمسحتها بغضب، وعادت تزدرد القهوة الباردة.

حسناً.. انتهى الأمر الآن. ربما عادت إلى السجن ثانية، كما قال فرانكو ولكنه سجن محدود هو أفضل بكثير من البركان الذي يمثله البارون فرانكو مونتاغيو دو سانكور.. فبعد ليلة أمس لن يحاول رؤيتها مجدداً.

وصلت إلى منزلها ذلك المساء متأخرة وكانت تقنع نفسها أن هذا التأخير يجنبها ساعات الازدحام في قطار الانفاق اللندني. لكن السبب الحقيقي في الواقع هو عدم رغبتها في أن تجلس وحدها في شقتها الفارغة، لتتذكر. ففي المكتب تستطيع على الأقل إلهاء نفسها بشيء ما ولو بغسل فناجين القهوة.

جلست في مقعد المترو السريع تقصد منزلها، والبؤس يغلفها. أحست أن كل من حولها ينظر إليها باستغراب وكأنها ترتدي بذلة فضائية.

لم تكن تعي نظرات المسافرين الفضولية قبالتها.. ولم تكن تعي أنها بوجهها المتجهم، وعينيها الكبيرتين المأساويتين، كانت تبدو كمن يتوجه إلى ساحة الاعدام.

في المنزل أخيراً، ارتقت الطوابق الأربعة حتى شقتها. كانت شقة صغيرة ليست سوى غرفة نوم، تقع على سطح مبنى قديم. وهذه الغرفة في الأصل كانت مرسماً لفنان، فنصف السقف، وجدار كامل، هما من

الزجاج لذا كانت تدفئتها في الشتاء تكلفها الكثير من المال. ولكنها الآن مشبعة بنور ودفء شمس المساء.

خلعت حذاءها، وغاصت في السرير الضيق الذي تستخدمه أيضاً كأريكة للجلوس ثم رفعت رأسها نحو الشمس تاركة توتر اليوم كله ينساب منها.. عندما مدت يدها ترفع شعرها بعيداً عن جبهتها أتاها من خلفها صوت ناعم: «جميلة».

شهقت غريتا، وحاولت الالتفات ولكنها وقعت عن الأريكة إلى الأرض مرعوبة. ومن هناك من حيث وضعها المزري، وجدت عيناها صورته، كان يقف جامداً، كظل أسود أمام النافذة الوضّاءة. عبر أشعة الشمس ارتفع خيط رفيع من الدخان.. ثم شمّت الرائحة التي ألفتها ليلة أمس. ورغم مرور عقد من الزمن منذ لامست رائحة سيكاره أنفها، تذكرت مكتبه الذي كانت هذه الرائحة تعبق منه وفي سترته كلما دخن مساء.

أغمضت غريتا عينيها بقوة. وقالت هامسة: «ماذا تفعل هنا؟».

ساد الصمت، ثم قال بخشونة:

ـ لماذا لا تقولين إن لدينا عملاً لم ننجزه بعد؟

لم تكن قادرة على السيطرة على ارتعاشها فلفت ذراعيها حول جسمها، تتمسك بكتفيها لتدعم نفسها.

ـ كيف.. كيف دخلت؟ كيف عرفت أين...

ضحك البارون: «لماذا تظنين أنني أرسلتك بسيارتي ليلة أمس؟. ذكر لي جوليو عنوانك».

ـ لماذا؟

تحرك من الظل: «أردت أن أرى مكان إقامتك؟».

ـ لا أفهمك.

التقت عيونهما وكانت عيناه شديدتي الاخضرار، كأنهما عينا قط

يستعد للانقضاض على فأر.

- ألا تفهمين؟

اجتاحها البرد من جديد، فهزت رأسها بعنف، أما هو فتابع بلهجة قاسية:

- أردت معرفة ما إذا كنت تعيشين وحدك.

سألته بمرارة: «وهل هذا هو تبريرك الوحيد لهذا الغزو».

- الغزو؟ أهذا ما تشعرين به؟ أترينني غازياً؟

- وبم ستشعر أنت لو اقتحم أحدهم منزلك منتهكاً حرمة دارك؟

رد بصوت ملؤه السأم والبرود:

- يا لهذه المأساوية! إن هذا ما كنت عليه دائماً، أردت بكل بساطة أن أتأكد بنفسي أنك لست في عوز.

أبعدت غرينا هذا عن تفكيرها، وكأنها لا ترتجف بصمت، وقالت من بين أسنانها: «وهل أردت أيضاً أن ترعبني حتى الموت؟».

عادت تجلس مرتجفة على الأريكة.. فتقدم فرانكو إليها يمسك بيدها اليمنى التي رفعها بواسطتها بحثاً عن دليل.. ثم قال بثقة مذهلة:

- لا أراك خائفة.

صرّت على أسنانها: «حقاً؟».

نظر إليها بسرعة يأسر عينيها وكأنه يحاول أن يجذب أفكارها الدفينة.

قال بعذوبة: «على الأقل ليس مني».

انتزعت يدها منه، وقالت بأنفاس مخطوفة:

- أوه.. لا.. يسرني جداً أن يقتحم الدخلاء منزلي. ترى كيف دخلت؟ لم يكن القفل محطماً.

- إنها خدعة قديمة.. لقد نجحت بطاقة الاعتماد المصرفي، خاصة لأن بابك لم يكن آمناً.

ردت ساخرة: «هذا ما ألاحظه الآن».

ضحك وكأنه يعترف بأنه تلقى ضربة.. كانت ضحكته مؤثرة معدية، فأحست غرينا بالبسمة تداعب شفتيها.

فكرت إن أخطر ما في فرانكو دو سانكور هي ضحكته التي تسلب الألباب.. فحينما يمسكها، كانت تتذكر أن هناك امرأة أخرى، هي حبيبته الحقيقية.. ولكن حينما يضحك تنسى كل شيء وتصبح عاجزة عن المقاومة وهذا ليس عدلاً. أشاحت بصرها عنه، محاولة تجاهل فتنته التي كانت دافئة كنور الشمس.. قال معترفاً بضحكة أثبتت جميع مخاوفها:

- يحق لك أن تغضبي.. فهل تغفرين لي؟

أوه.. حسناً.. لا فائدة من مقاومة المتعذر اجتنابه وتنهدت..

- أنت الآن هنا.. سأثبت في الغد شبكة حديدية مع مزلاج للباب.

ضحك مرة أخرى، وأشارت إلى الكرسي الوحيد في الغرفة، إلى الكرسي الهزاز.

- اجلس واشرح لي لماذا أصبحت لصاً.

جلس فيه بامتنان، وراح يهزه إلى الخلف ثم إلى الأمام بسعادة وبراءة ولكنها لا تثق به حين تلوح على وجهه البراءة. أخيراً قال بحذر:

- في الواقع سبب مجيئي هو «آني».

- البارونة؟ جدتك؟ ماذا بها؟

- إنها مريضة.. مريضة جداً. إنها هنا في لندن تتلقى العلاج في المستشفى.

تذكرت غرينا أن تريشا أخبرتها بذلك، فردت بإخلاص لأن السيدة العجوز كانت صديقة طيبة لها منذ عشر سنوات.

- أنا آسفة جداً.

قال فرانكو، وهو ما زال يهز الكرسي: «وترغب في رؤيتك».

- رؤيتي؟

بدا منزعجاً: «ولِمَ لا؟ كانت وما زالت تحبك».

- ولكن مضى زمن طويل وللأسف لم نخلف وراءنا أنا وعمي أفضل الانطباعات.

- ليتك تتوقفين عن إلصاق نفسك بعمك.. أنت لست مسؤولة إن كان يكسب رزقه بطرق غير مشروعة، ومنذ عشر سنوات كنت طفلة غير مسؤولة عن نفسك، فما شأنك به.

أدغشت عينا غريتا الذكرى. ما كان البارون ليقول ما قاله لو عرف أن أباها هو من دفع عمها إلى الفقر بمشاريعه للكسب السريع، كما يقول غودفري.. فالبارون يشترط الشرف والصدق في الناس مهما كلفه الأمر ويكره الاحتيال والمراوغة اللذين على ما يبدو هما صفة موروثة في عائلتها.

بدر عنه صوت ملؤه نفاذ الصبر، فسارعت تقول وهي مبتسمة ابتسامة حزينة:

- سأذهب طبعاً إليها إذا كان هذا ما تريده.. فهي كانت دائماً لطيفة معي.

ضاقت العينان الخضراوان: «وأنا.. ألم أكن؟».

- ماذا؟ أوه.. لا.. أعني..

- أظن أن ما تقصدينه واضح.. أني هي صديقتك، أما أنا فلست صديقك.

ضحكت.. هو.. صديق؟ بعد ليلة أمس، هذا إذا لم تفكر في ما حدث قبل عشر سنوات حين أوصلها إلى حافة الاستسلام ثم نعتها بالمبتزّة الرخيصة.. أيظن أنها قادرة على أن تعتبره صديقاً.

اشتد ضغط فمه الجميل حتى أصبح خطاً رفيعاً مستوياً، ثم قال بخشونة:

- سأحضر لأصحبك من المكتب غداً ظهراً، كوني هناك.

وسار إلى الخارج.

***

في اليوم التالي كانت غريتا بانتظاره وقد دام انتظارها ما يزيد عن الساعة وكان مع كل دقيقة يزداد توترها. وعندما لم يتحرك فنسنت من مكتبه طوال الصباح، عرفت أنه سيستغل الفرصة ليبدي استياءه من جعل المكتب لاستقبال أصدقائها لذا راحت تدعو ألا يفعل هذا أمام البارون أو في وجهه.

لكن عبثاً.

كان في قاعة الاستقبال حين وصل البارون. ومع أن غريتا كانت في أشد حالات التوتر لم تلحظ وجوده إلا بعد عودة فنسنت الذي فتح الباب على مصراعيه بقوة قائلاً:

- في الباب شخص مشطوب الوجه يطلب رؤيتك اليوم يا ملاكي! هل انخرطت بالعمل مع المافيات هذه الأيام؟

قفزت غريتا واقفة وكانت قد شاهدت فرانكو يقف وراء فنسنت وما ظهر على قسماته أوضح أنه سمع كل كلمة قالها.

فقالت بصوت منخفض حاد: «اصمت فنسنت»!

لكن الوقت كان قد فات، فالبارون يقف هناك ينظر في المكتب ببرود.. أدركت فجأة من نظرته أنه يرى المكتب حقيراً.. ولا بد أن فنسنت لاحظ الأمر عينه، حتى وإن كان لا يعرف مدى أناقة المنزل الذي يقطنه البارون في لندن.

ثبّت فنسنت نظره على الجرح.. وقال لغريتا دون أن ينظر إليها:

- عليك أن تكوني حذرة ودقيقة في من تسمحين له بزيارة مكتبنا.. غريتا.. فلا أريد أن يظن أحد أننا نتعامل مع مافيات.

كانت إهانته سخيفة وطفولية ولكنه قصد منها الإيلام، غير أنها لسبب لم تفهمه كرهت كلامه أي كره. لم تنظر إلى البارون، المتماسك البارد في بذلته الثمينة الرائعة، بل نظرت إلى فنسنت بكراهية.. وقالت ببرود:

ـ يدهشني أن نعمل وأنت موجود في هذه المؤسسة.

ذهل فنسنت ذهولا جعله يتراجع خطوة وقد ذهل البارون أيضاً من سرعة ردها.. التقطت حقيبتها مديرة ظهرها إلى فنسنت الذي أصمته الصدمة ثم قالت لفرانكو: «هل لنا أن نذهب؟».

ظهرت التسلية في العينين الخضراوين.. وفتح لها الباب بكياسة مبالغ فيها:

ـ سمعاً وطاعة سيدتي.

عندما خرجت من المكتب شامخة الرأس شاهدت النظرات الخفية لا إليها فحسب بل إلى الوجه المشطوب. وتقلص قلبها ألماً فهي لم تنس إلى الآن ما قاله عن ابن أخيه وخوفه من مظهره.

فهمت للمرة الأولى ما يشعر به. في الرفانا المنطقة التي أصبح فيها معروفاً ومحترماً، لم يعد يذكر أحد تشوهه.

أما هنا، في لندن فالأمر مختلف لقد جعلتها رؤية النظرات الفضولية في الشارع والذهول غير الخفي الذي أبدته الفتاة في المكتب، تعي بحدة مدى اختلاف الوضع بالنسبة لفرانكو.. إنه رجل فخور بنفسه لذا يكره هذه النظرات، والشفقة النابعة منها.

كانت السيارة تنتظر مع سائقها الذي لم يكن جوليو هذه المرة. ساعدها فرانكو على الصعود وفي هذه الأثناء ألقى الضوء شعاعه على الجرح فذعرت غريتا وأشاحت بصرها إلى البعيد لأنها لن تضيف شيئاً إلى ما يتحمله.

لم يُشر إلى فظاظة فنسنت أو إلى هجومها المرتد المثير للدهشة..

بل تحدث بهدوء عن جدته:

ـ إنها تعبة جداً... ولكنها تتوق إلى رؤيتك. سأتركك معها.. لدي أشغال كثيرة عليّ إنهاؤها.

تمتمت غريتا والتوتر ما انفك يخالجها بسبب تدافع مشاعرها غير المتوقع:

ـ أجل.. طبعاً.

كانت المستشفى مكاناً لطيفاً، تشبه فندقاً ضخماً أكبر مما تشبه مستشفى ومن الواضح أن الجميع كان يعرف البارون... فقد ابتسموا له وهو يمر قرب مكتب الاستقبال متجهاً رأساً إلى المصعد، والمميز في الأمر أن أحداً لم ينظر إلى وجهه.

عندما بلغوا الطابق الحادي عشر قال لها:

ـ سأدخل، لأتأكد من عدم وجود الأطباء معها.

هزت غريتا رأسها، قبل أن تتوجه إلى أحد الأبواب الخشبية المصقولة الأنيقة. تجولت في الممر تتأمل أناقة الديكور فوجدت باقات زهور رائعة الترتيب في تجويف جداري قبالة المصعد. ثم أدركت فجأة أن باب غرفة البارونة غير مغلق وأن الأصوات تتناهى منه.

تعرفت غريتا إلى نبرات رقيقة هي للبارونة الإيطالية.

ـ... إنها مخاطرة كبيرة.

ولم تستطع سماع الرد.. ثم تابعت البارونة تقول:

ـ هناك دائماً خط الخسارة.

وكأنما توبخ من تحدثه على ما قاله.. ثم رد الآخر بصوت غير مسموع.. وصمت. كانت غريتا ترتد على عقبيها مبتعدة عندما سمعت صوت شخص تعرفه معرفة ما تزال باقية في جسدها لا في عقلها فقط. تسمَّرت في مكانها عندما سمعته يقول بخشونة:

ـ وما هو الخيار الآخر أمامي؟ لم يبق لي شيء آخر.

بدا وكأنه يتعذب.. تطلعت إلى يديها فوجدتهما مطبقتين إطباقاً كاد معه الدم يتخلى عن أناملها. لا يمكنني تحمل ألمه. وهذا الاكتشاف فاجأها فماذا يعني هذا بحق الله؟ لماذا تفكر هكذا؟ ماذا يعني لها فرانكو دو سانكور؟ سيبتعد عن لندن، وعن حياتها في القريب العاجل.. لذا يجب أن لا يهمها إن تألم أم لا. بل عليها ألا تسمح لنفسها بالاهتمام به.

انفتح باب الغرفة ووقف فرانكو أمامها.. فشعرت أن شيئاً ما ظهر على وجهها الجميل وعينيها الدعجاوين اللوزيتين، وثغرها الحساس. تقدم خطوة إلى الأمام بنفاد صبر، ثم كبح حركته ونظر إليها بإمعان.. وتمكنت غريتا رغم ما اكتشفت ورغم صدمتها مما اكتشفت، أن تبتسم له. ولكنها لم تع إلى أي درجة بدت بسمتها مرتجفة:

ـ جدتي وحدها.. أتودين الدخول؟

كانت البارونة متعبة.. فعيناها السوداوان بدتا غائرتين أكثر من أي وقت مضى. كانت يدها النحيلة مسترخية على الغطاء وكأنما لا تملك قوة ترفعها بها غير أنه كان في ابتسامتها لزائرتها كل الدفء القديم:

ـ عزيزتي.. ما ألطف أن تزوريني!

التفتت إلى حفيدها، بنظرة لوم غريبة، وأكملت:

ـ فرانك، أتصب لنا القهوة؟ والآن طفلتي، تعالي واجلسي قربي واخبريني عما فعلته في السنوات الماضية.

قامت غريتا بما في وسعها استجابة لها. ولم يك الأمر صعباً.. فطالما كان الحديث مع البارونة سهلاً، بسبب عذوبتها ولطفها وتسامحها. لكن وجود فرانكو في المكان بعث توتراً جديداً.

أخيراً أحست البارونة بهذا التوتر فغيرت الموضوع:

ـ أخبرني فرانك أنه صحبك إلى «منزل الزهور» فهل تمتعت هناك؟

تورّد وجه غريتا لأنها فوجئت ولأنها أحست بالخجل والندم،

راقبت البارونة تدفق الاحمرار إلى وجه زائرتها الشاحب.. ففرقت في التفكير. تجاهلت غريتا الصقر القابع خلفها لترد بجفاء: «كان المكان في غاية الجمال».

وافقت البارونة على ذلك لكن نظرتها كانت تنتقل من غريتا إلى حفيدها المشدوه:

ـ أجل، لقد جعل ادغار وجانيت المكان جذاباً.. تذكرتهما طبعاً؟ هل شاهدتهما؟

رد فرانكو بسرعة: «لم يكونا هناك».

انتفضت غريتا ثانية.. فهل لوجود صديقيه أو عدمه فرق؟ أكان سيخجل من بقائه معها إن عرف أنه مراقب من أشخاص يهمه رأيهم فيه؟ أم أنه سمح لنفسه أن يستغل فرصة غيابهما.

قالت البارونة بقلب مطمئن وبوجه حزين:

ـ سيكون هناك فرص أخرى. خاصة إذا بقي فرانك في لندن مدة طويلة.

رد بقوة: «لقد وعدت بأن أصحبك إلى بلادنا».

ابتسمت البارونة، وقالت مازحة:

ـ أوه.. أنت.. أتظن أنك لا تُقهر! ما أشد تعجرفك!

ـ تعجرف؟ هراء! الأمر ليس سوى تخطيط وأنا بارع في التخطيط.

لاح على ثغره طيف ابتسامة فاتنة فهزت الجدة رأسها ووبخته قائلة:

ـ أظن أحياناً أنك ترى نفسك أكبر مما أنت عليه. اعلم أنك لا تتولى إدارة العالم.

تقدم فرانك منها ليطبع قبلة على خدها.. وقال بمكر: «لا حاجة إلى أن أتولى إدارة العالم بل يكفي أن أتولى إدارة أموري الخاصة..

يجب أن أذهب الآن.. سأراك لاحقاً».

ولئلا تسيء غريتا الجالسة في كرسيها صامتة فهم ما يقول، أضاف متعمداً: «سأراكما كلاكما طبعاً!».

***

٥ ـ ديون الماضي

بعد رحيله شعرت غريتا بأنها تتنفس الصعداء وكأنما شخص ما قد فك قيودها. وبدت البارونة كذلك أكثر اطمئناناً، وقالت:

ـ أقلق عليه أحياناً لأنه يظن أن من واجبه إصلاح هذا العالم. وهذه المرة..

صمتت، فسألت غريتا: «هذه المرة؟».

لكن البارونة هزت رأسها وقالت:

ـ يصعب تباحث هذا الأمر وأضيفي إلى ذلك أنه ممل جداً. حدثيني عن نفسك عزيزتي.. لقد مر وقت طويل! قلقنا عليك حينما اختفيت فجأة وظن فرانك أن عمك خطفك. ثم لمّا اكتشفنا أنك عدت إلى لندن عرفنا أن لا شأن لعمك باختفائك، لماذا لم تتصلي بنا ثانية؟

أطرقت غريتا تنظر إلى يديها.. هذه هي النقطة التي تستطيع من خلالها قذف حفيد هذه المرأة المحبوب بجملة من الاتهامات. كانت غريتا تتمنى حينما كان الجرح مؤلماً، أن ترد له الألم، ولكن هذه الأمنية باتت بلا جدوى في الوقت الحالي لذلك قالت تريد التملص:

ـ أردت أن أرمي كل شيء وراء ظهري ولأبدأ من جديد.

هزت العجوز رأسها، وبدت الحيرة في عينيها. فهي لم تضطر قط إلى مواجهة أي موقف بائس ولم يحدث أن فرت هاربة.

وقالت مبتسمة:

www.rewayma.com

ـ أتعلمين أنني أنا التي وجدتك. اتصلت مؤسستك بصديق لي في رفانا وشاهدت اسمك على الأوراق.

أو.. يا الله! إن البارونة هي المرأة التي ينوي فنسنت أن يستغلها! شحب لون غريتا.. لكن العجوز لم تلحظ ذلك. وأكملت:

ـ وقد كتبت رسالة إليك ولكن تريشا عرضت علي أن تزورك في المكتب.

قالت البارونة تشير إلى تريشا وحفيدها.

ـ من المؤسف أن أحدهما لم يكن يليق بالآخر إذ كان لكل منهما اهتمامات متباينة.

تمتمت غريتا، إنما بدون ارتياح واقعي: «أعتقد هذا».

ـ لقد انزعج فرانك.. كثيراً.

كان يمكن أن تضحك غريتا. لو كان يحبها لشعر بأكثر من الانزعاج؛ لشعر بالدمار والغضب والخيانة، والتهور... فهل كان متهوراً إلى درجة أن يتخذ سيدة أخرى عزاء له؟

أضافت الجدة وهي لا تدرك مشاعر غريتا الداخلية:

ـ لقد أفسدت عليه خططه.

ـ خططه؟.

تنهدت البارونة:

ـ كان من المفترض أن أعود إلى «الكونيتا» بعد الزفاف. وكنت أعرف أن بقائي هناك خطأ.. فالعروسان يحبان أن ينفردا بأنفسهما في أيام الزواج الأولى. ولكن فرانك ضحك على طريقة تفكيري وتصرف بالطريقة التي تعرفينها.

ألهذا تراجعت تريشا باكية؟ الأنها خافت من مسؤولية العناية بالجدة في المنزل الذي اعتادت أن تديره العجوز؟ صحيح أن تريشا لم تقل هذا ولكن غريتا شعرت أن وراء ما قالته تريشا شيئاً لم تفصح عنه.

وتابعت البارونة تكرر أمراً واقعاً:

ـ لم أكن أظن أن فرانك قد يتزوج.

ـ ولماذا بحق الله..؟

ـ لأنه لا يحب التقرب من الناس.. ثم هناك ذلك الجرح الذي لا تقبل به الكثير من النساء.

ردت بحرارة:

ـ هذا سخيف! إنه رجل جذاب جداً! ليت الجميع يتوقفون عن التحدث عنه وكأنه مسخ.

ابتسمت البارونة ابتسامة خفيفة، وكأنها كسبت شطراً من لعبة لم تكن غريتا تعي أنها تلعبها. فنظرت إلى العجوز ريبة..

ـ أنت على حق تماماً.. وأنا آمل أن يلتقي يوماً بمن تجعله يصدق هذا.

بعد ذلك غيرت البارونة موضوع الحديث بمهارة. حين وقفت غريتا لتذهب، مدت البارونة نفسها لتقبلها على وجنتيها قائلة:

ـ أنت فتاة طيبة.. وليت اليكسي..

نظرت غريتا إلى الوجه المتعب: «الصبي؟».

تنهدت البارونة:

ـ أجل.. ابن بيدرو.. انه ليس سهل الانقياد.. يحتاج إلى أم طبعاً. يغضب فرانك منه بسرعة وهو متشدد أحياناً معه وساخط أخرى حتى الجنون لذا علينا أن نقوم بشيء حيال هذا.. ولكنني متعبة جداً.. تذكرتك عندما كنت في إيطاليا لم تكوني أكبر منه بكثير يومها. وكنت مضطربة ومشوشة مثله. ليت شخصاً مثلك يتحدث إليه.. فأنا وفرانك بعيدان عنه.. ولكن، من الرائع رؤيتك مجدداً عزيزتي. زوريني قريباً فأنا باقية هنا وقتاً طويلاً.

عصرت الشفقة قلب غريتا، فلامست اليد الضعيفة مؤكدة:

«سأعود».

كانت تتوقع أن تجد البارون في الخارج ينتظرها لكن الشارع المحاط بالأشجار على الجانبين كان فارغاً فسارت ببطء باتجاه محطة المترو تحت الأرض.. سيكون فنسنت غاضباً ولكنها لا تهتم حقاً.. فقد حان الوقت لترك العمل عنده.

كانت منذ أسابيع تشعر بالقلق بسبب أسلوبه في العمل ولكن الأمر الآن اختلف. فبعدما أهان فرانكو بقسوة هذا الصباح باتت تشعر بأنها لن تطيق رؤية فنسنت ثانية. وهي ما عادت بحاجة إلى أن تجهد نفسها باتخاذ القرار.. فقد جعل تصرف فنسنت المشؤوم من المستحيل عليها أن تتابع العمل عنده.

فكرت في أن هذا القرار عظيم ولكنها تعلم أن من الصعوبة إيجاد وظيفة أخرى ثم وبعد هبوط غودفري الأخير عليها إلى لندن، لم يعد لديها مدخرات تساعدها على الأوقات العسيرة. ولكن مع ذلك لا فائدة من التراجع، فقد عزمت النية، لذا أثناء توجهها إلى المكتب دخلت إلى وكالتين كانتا في طريقها فسجلت اسمها في دفاترهم.

***

حين تركت العمل ذلك المساء كان البارون بانتظارها. تقدم منها وهي تقفل باب المكتب.. وعندما لمس ذراعها أغمضت عينيها برهة ولكنها في أعماقها لم تكن دهشة... وتمتم بصوت ملؤه الضحك المكبوت:

ـ هل لي أن أقلك؟

تنهدت:

ـ هل أنت ذاهب إلى منزلك عن طريق جادة براسي؟

تناول حقيبتها ومفاتيحها وقال:

ـ بل أنت ذاهبة إلى منزلك عن طريق دانهام. لديّ عشاء فاخر، وعصير بارد قبله، وما من فتاة عاملة تقاوم دعوة كهذه.

هزت رأسها، لكنها كانت تضحك:

ـ أنت على حق.. حسناً.. سأرافقك بهدوء.

قاد السيارة بنفسه.. حين وصلا إلى المنزل الأبيض المرتفع، بدا مهجوراً لذا تصاعد صدى وقع أقدامهما بشكل غريب. عندما فتح الباب وأدخلها إلى الردهة الداخلية قال باقتضاب: «من هنا».

أصبح فجأة أقل لطفاً، وأقل مرحاً لا بل شعرت به ينظر إليها وكأنه يقوّمها كخصم له.

كانت الغرفة التي أشار إليها غرفة جلوس صغيرة، فيها كرسيان وطاولة ضخمة، وكتب في كل مكان. وكانت الغرفة باستثناء النور المتدفق من زجاج النوافذ وقماش الستائر الملونة نسخة عن مكتبة المزرعة ولكنها طبعاً، أصغر حجماً، وأقل روعة. لم يكن هنا كرة أرضية تعود إلى القرن الثامن عشر، ولا رسوم زيتية قاتمة على الجدران المكسوة بالقماش المذهّب. أما الفوضى فكانت شبيهة.

أشار فرانكو إلى أحد الكرسيين، لكنها تجاهلت إشارته فهز كتفيه وتقدم يجلس على زاوية مكتبه الحافل بالكتب ثم نظر إلى يديه، قبل أن يقول بلهجة رسمية:

ـ لن أبقيك هنا طويلاً بل لن يستغرق هذا إلا فترة وجيزة.

ـ وما هو هذا؟

رفع نظره إليها، ثم أخفضهما من جديد إلى أصابعه التي كانت تمسك بركبته المرتفعة.. وقال ببرود: «طلب زواج».

شهقت، أما هو فتمتم ليقطع الصمت الذي ران:

ـ وهل توقعت شيئاً آخر؟

احمرّ وجهها بقوة.. إنه يعرف تماماً ماذا توقعت والأنكى أنها

وبعد تصرفه المشين تلك الليلة أصبح لديها كل المبررات لتتوقع ما توقعت . . سحبت نفساً عميقاً لكن فرانكو تململ محتجاً :

ـ ليتك لا تبقين واقفة هكذا «كجان دارك» فهذا يثير أعصابي .

نظرت إليه : «أمر عظيم» .

هز رأسه وقد بان على ملامحه الأسى وسأل مؤنباً :

ـ لا تكوني قاسية . . فأنت لا تعرفين إلى أي حد يثير هذا أعصابي .

شخرت ساخرة . . قد تخيفها قوته وسحره الذي لا يقاوم، لكنه لن يخدعها بكلامه هذا .

ـ يبدو واضحاً الأمر عليك!

ضحك بسحر فجأة، ومد يده إليها :

ـ حسناً . . ربما، فأنت تخيفينني . . أتعلمين هذا؟

تجنبت النظر إلى يده المغرية وجلست تقول ساخرة :

ـ أرى أنك ترتجف . . ماذا تعني بكل هذا بحق الله؟

توقف عن الابتسام ثم تنهد، وبات واضحاً أنه لا يتظاهر . ذعرت عندما أدركت ذلك . . فليست اللعبة لعبة صياد يلهو بفريسته، فأمامها الآن رجل متوتر ويائس حقاً وتشك كثيراً في أنه يعي وجودها فربما هو يتحدث إلى نفسه .

ـ حالة آني تزداد سوءاً فهي في كل مرة تبدو أشد إرهاقاً وتعاسة وأكثر قلقاً على الصبي المتوحش وعلى نفسها من الموت في بلاد غريبة .

مرر يداً على شعره الأسود، ولم يبدُ أنها المرة الأولى التي يقوم بذلك هذا اليوم، فقد بدا شعره أشعث وبدا فكره مشغولاً وجسمه مرهقاً وهذا كله دفع قلبها إلى الرأفة به .

ـ تحدثت إلى استون هذا الصباح . . إنه مستشارها الطبي وهو يقول إن عليها أن تفعل ما يجب، ثم تعود إلى ديارها . . لكن . .

ضرب قبضته على راحة يده الأخرى بغضب مباغت أجفل غريتا .

ـ يجب أن يدير المزرعة شخصاً ما ويتولى العناية بالصبي أيضاً .

ـ تريشا . .

قال بسرعة : «تريشا قررت ولا أنكر خيبة أملي ولكن لا مجال للتراجع» .

ـ أنت تحتاج إلى زوجة الآن .

تردد . . ثم قال ينظر إليها : «أنا . . أجل» .

نظرت بعيداً، بدون أن تشعر بتوترها المؤلم ولكنه لفظ اسمها بصوت ناعم وكأنما يخرج منه انتزاعاً . . شعرت أنه حاول التقدم إليها ولكنه عاد فتراجع فها هو ما يزال جالساً في مكانه ولا يلوح عليه إلا توتر خفيف .

عندما تلاقت عيونهما هزت رأسها مرتبكة ومشوشة . لم يخطر ببالها قط أنه قد يرغب في الزواج بها بل الأصح لم يرد الزواج بها إلا بعدما وجد نفسه أمام حائط مسدود وها هو الآن يراها مناسبة لزواج مصلحة فهو يعرف كل شيء عن ماضيها وعن أقاربها غير المرغوب فيهم، وعن رئيسها الحالي المشكوك في أمره كما يعرف نعم المعرفة أنها غير قادرة على إدارة شؤون منزل كبير مثل «الكونيتا» وأنها غير مطلعة على كيفية ارتداء الثياب الجميلة وغير متمرنة على استقبال الناس بلياقة وفتنة، أو على إلقاء الأوامر على الخدم .

يعرف كل هذا كما يعرف أيضاً أن جهلها هذا يخيفها وقد يدفعها إلى ارتكاب الهفوات .

قالت : «لن تكون البارونة راضية إن توليت إدارة منزلها ثم فشلت . ألم يخطر ببالك أنني قد أزيدها قلقاً بدل أن أخفف عنها؟» .

ـ هذا ممكن .

بل ممكن جداً . أوه . . لماذا . . لماذا تحس برغبة في القبول وهي

غير مدربة على القيام بأعباء كتلك؟ ولكن كان لفكرة زواجها من فرانكو تأثير مذهل في نفسها، فهي تشعر وكأنها تنظر إلى صورة شاهدتها منذ سنوات. وللأسف لم يرحها ما يتراءى لها في خيالها. وقالت تقاوم نفسها أكثر مما تقاومه.

ـ لم أضطر قط إلى العناية بأحد سوى نفسي.

ـ لكنك فعلت الكثير من هذا.

إنها ملاحظة غريبة فوقفت وأفكارها الهائمة تأسرها نبرة ذلك الصوت الناعم.. كان ينظر إليها، والجرح القبيح المنظر بارز. قال وكأنه يقسم:

ـ سأعتني بك، طبعاً.

أثر فيها قوله هذا، لكنه أيضاً أعاد إليها مخاوفها الأولى، فعضت على شفتها..

زفر نفساً طويلاً.. ثم قال بصوت ساخر:

ـ حسناً.. على الأقل أنت تفكرين في الأمر، فماذا أستطيع القول لأساعدك على التفكير؟

ـ لقد قلت أكثر مما يمكن.

قال بغضب ساخر: «صحيح».

رأت أنها للحظة لم تفهمه ولكن لم تلبث أن شعرت بالاحمرار يضرّج وجهها، وكرهت هذا.. إنه يظنها حمقاء بلا أدنى شك.

قالت بصعوبة: «أنا أحب البارونة حباً جماً وأتعاطف معها وأود المساعدة ولكن لو...

نظر إليها بدون أن يردّ، وهذا ما لم يساعدها..

فسألت ببؤس:

ـ أليس هناك من طريقة أخرى؟ لِمَ لا تطلب مني أن أكون مدبرة منزل أو ما شابه؟

رد بعنف مكبوت:

ـ ألا ترين أيتها الفتاة الحمقاء، أنني بحاجة إلى من تتحمل المسؤولية! لا إلى من يقوم بالأعمال اليومية. أووه.. أريد سيدة للمنزل هل تفهمين؟.

ابتلعت ريقها: «ما دام الأمر كذلك فلماذا حاولت اتخاذي عشيقة؟».

ران صمت طويل ولم تستطع فيه النظر إليه.

قال ببطء:

ـ لم يكن بيننا أقل تنافر.

نظرت إليه دهشة فرأته عابساً ورأت جرحه ينتفض.. حين عاد إلى الكلام بدا أنه يختار كلماته بحذر: «أهذا هو اعتراضك الرئيسي؟».

أحست بجفاف حلقها ولم تكن قد شعرت قط بمثل هذا الحرج أو بمثل هذا الضعف وابتلعت ريقها بصعوبة. ومع أن فرانكو لم يضع يده عليها، أحست ببرودة الجليد. أحست وكأن هذا الوجود الجامد الكئيب قد رمى شباكه حولها. ولكن رغم ذلك لم يتكلم أي منهما في تلك الغرفة التي تنيرها أشعة الشمس.. أخيراً قالت:

ـ إذا كنت.. لا أقدر.. فلا أريد..

أنهى لها كلامها متجهماً: «لا تقدرين على أن تكوني معي.. أجل، أفهم ذلك».

ارتفعت عيناها إليه بخجل.

ـ لقد وضحت هذا غير أنني أملت...

وصمت.. فسألت: «ماذا».

ـ أنت وحيدة في هذا العالم.. مخلوقة شديدة الحنان.. فماذا عن الأولاد؟ فهل تتخلين عن فكرة إنجاب الأطفال؟

ـ رأيت ما قد يحدث لهم لذا لن أكون سبباً في تعاسة أي مخلوق.

ازدادت تقطيبته: «وهل أنت متأكدة؟».

هزت رأسها بالإيجاب، فتابع: «ليتني أثق..»

ـ بل ثق بقولي فأنا لا أريد أن أنجب الأولاد، وليس من المحتمل أن أغيّر رأيي.

نظر إليها بريبة: «أيعني هذا أنك ستتزوجينني؟».

قفزت مذعورة ولم تكن تعي ما يجري ولكنها تنازلت في خضم الحديث عن اعترافها.. وهذا هو الجنون المطبق ولكن حين رأته رمادي اللون منهكاً، وكأنما عجرفته لم تعد تكفيه، لم تستطع منع نفسها عن التعاطف.. وأحس بترددها.

قال بسرعة: «أحتاجك غريتا».

أطلقت تنهيدة طويلة، نصفها يأس ونصفها ارتياح، لأن المعركة انتهت.. وقالت: «سأتزوجك».

***

إن أحد الأمور التي كان عليها القيام به هو إخبار تريشا بهذا. لم تكن قد تكلمت مع صديقتها منذ اتصلت بها تخبرها بوصول خاتم الخطوبة إلى صاحبه، ولم تكن تعرف كيف ستتلقى تريشا هذا الخبر.

لكن تريشا لم تظهر الانزعاج بل نظرت إلى غريتا تتأملها:

ـ أهذا ما تريدينه حقاً؟ بإمكان فرانكو أن يكون شرساً.. فهل حاول السيطرة عليك؟

ـ لا.

ـ حسناً.. لا أراك سعيدة جداً.. ولكن عليك أن تظهري بعض السعادة أمام المصورين وإلا كنت سبباً في نشر اسمه في صحف الشائعات مدعين أنه يضرب زوجته.

كان فرانكو قد قال لها الشيء نفسه تقريباً.. ففي إحدى الأمسيات

قال لها بنبرة ملؤها التوتر:

ـ أتظنين أنك قادرة على أن تظهري سعادة العروس؟

كانا يقفان على عتبة منزله اللندني، ينتظران أن يحضر جوليو السيارة.. كانت ترتدي أحد الفساتين الجديدة التي أصر على شرائها وهو فستان من الحرير الأخضر يبرز روعة قدّها. أما الحذاء الذي كانت تنتعله فكان عالياً علواً لم تعتد عليه من قبل. كانت قد سرّحت شعرها إلى الوراء بعيداً عن وجهها وعقدته بعقدة زمردية تشبه ذاك الذي يغطي جيدها ومعصمها. فبدت في غاية الأناقة ولكنها كما قال لم تبد سعيدة..

أجابته: «العروس تتوتر عادة».

ـ تتوتر نعم إنما لا تظهر خائفة وجلة حتى الموت.. ألا يمكنك على الأقل التظاهر بأنك تريدين الزواج بي على الأقل في هذه السهرة؟

آلمتها كلماته وابيضّ وجهها ثم لما وضع ذراعه حول كتفيها أذعنت فراح يقودها إلى الفندق الكبير الذي سيلتقيان فيه ادغار وجانيت وسائر المجموعة.. كانت المناسبة حفل خيري راقص، ولكنها لم تفهم الغرض من التبرعات. كانت تتعلم التعود على الرسميات لكنها لم تتعلم بعد التمييز بين الشخصيات.

جلسا لتناول الطعام على المائدة الرئيسية وكان من الواضح أن فرانكو هو ضيف الشرف. وتلقت غريتا نظرات فضول عديدة وكانت هدفاً للعديد من عدسات التصوير. أخيراً صحبها فرانكو إلى حلبة الرقص وهناك أحرقت يده المكان التي استقرت عليه.. وبدا لها أن كل الأنوار في القاعة مسلطة عليهما.

على الحلبة، جذبها إلى ذراعيه بسهولة، وكأنما ليس هناك ذكريات ماضية عليها تناسيها. حبست أنفاسها فنظر إليها يقول:

ـ لا تأبهي لأحد منهم! سيتعبون من مراقبتنا بسرعة بعد زواجنا.

هزت رأسها فلمع الزمرد: «ليس الأمر هكذا بل أنا أكره..».

ـ لن تكون الصور جميلة.. ولكنك غير مضطرة للنظر إليها.

وكأنه قصد أن يجرحها أحست بالدموع تلسع عينيها ولكنها أحست بكبرياء لم تسمح لها بأن تتركه يراها، فأدارت وجهها بعيداً تقول:

ـ أنت لا تسهّل الأمور عليّ هكذا.

ضحك بخشونة:

ـ وما الذي سيسهل عليك الأمر يا زوجتي العتيدة الحبيبة؟ جراحة تجميلية؟

فوجئت ولكنها قالت قبل أن تستطيع كبح الرد: «لا تفعل هذا».

ولكن الأنوار خفتت في تلك اللحظة، وتغيرت الأنغام، وكما فعل كل الرجال ضم فرانكو شريكته إلى صدره.. وكان غريباً ما شعرت به. كانت تشعر بأنها وحدها معه وأن لا أحد هنا سواهما وأنهما على شفير شيء قد ينهي راحة بالها إلى الأبد.

تنفست الصعداء حالما انتهت الرقصة، فنظر فرانكو إليها ساخراً ثم أعطاها فوراً لادغار، الذي أعادها إلى الموسيقى وطفق يقص عليها بحماس مدى سعادته وجانيت بزواجهما ولكنه لم يقل إنه ذهل لأن صديقه اختارها.

ولم يكن الذهول فقط من نصيب أصدقاء البارون. فقد قال لها ديسموند يورك مقطباً:

ـ لماذا يريدك؟ ماذا ينوي أن يفعل؟

كانت قد قامت بالتعارف فيما بينهما وقد حدث أن تعاملا بحذر وكياسة. وعندما سألها ديسموند لم تستطع الرد على السؤال طبعاً، فتابع ديسموند:

ـ أيحاول دفعك إلى تسديد دين قديم؟

حدقت غريتا إليه بذهول.. فتابع:

ـ كتب محامي العجوز إلى فنسنت رسالة عن تلك الأملاك في رفانا وهي تحمل لقب بارون، فهل هي قريبته؟

غاص قلبها فقالت: صديقة!

ـ حسناً.. شخص ما راسلنا ولكن فنسنت أخذ الرسالة ومنذ ذاك الحين لم أرها ولكن المميز فيها أنها لم تكن مطبوعة.

عادت إليها الذكرى بصورة واضحة.. فإن كانت الرسالة مكتوبة بخط اليد. فهذا يعني أنها الرسالة التي كتبتها البارونة لها، والتي لم تصلها قط. لكن لماذا أخفاها فنسنت عنها. عندما أخبرت ديسموند بالأمر قال بثقة:

ـ نكاية بنا وإحساساً بالذنب.. لقد هددته إذا ما استمر في مشروعه بأن أترك الشركة.. ويبدو أنني وضعت العصا بين الدواليب وهو لن يتحمل خسارتنا في آن واحد.

ـ شكراً لك.. لم أكن أجرؤ على الأمل بأن تكون النهاية سعيدة.

ابتسم لها ديسموند بمكر:

ـ ليت السعادة تحف بحياتك في النهاية! هل ستعودين إلينا إن واجهت صعوبات؟ إلى صديقيك.. فأنا لا أحب نظرته إليك أحياناً.

لكن فرانكو كان دائماً الكياسة عينها، في السر والعلن.. كان يرافقها عمداً في الأسابيع الأخيرة قبل الزفاف. كان يذهبان إلى حفلات الاستقبال والكوكتيل، والعروض الخاصة وكأنهما من العائلة المالكة.. وكان يهز كتفيه بعدم اكتراث ويقول:

ـ تخمة من الدعاية العلنية.

فتساءلت: «ماذا تعني؟».

كان هذا بعد مشاهدتهما معرضاً فنياً. في تلك الليلة عادت معه إلى منزله فاسترخت على الأريكة وكان عندما يختليان يبتعد عنها ولا

يحاول مسّها. ابتسم لسؤالها بطريقة ماكرة:

ـ لو خرجنا كثيراً وبشكل دائم لفقدوا الاهتمام بنا وهذا ما سيجعل خلافاتنا طي الكتمان.

ـ خلافات؟

ـ يتشاجر معظم المتزوجين من وقت إلى آخر.

أزعجتها الفكرة: «ليتنا لا نتشاجر».

ـ لكننا لسنا غير عاديين إلى هذه الدرجة.. فأنا لست قديساً، ولا أنت كذلك.. أتصور أن خلافاً أو اثنين أمر محتوم.

رفعت رأسها:

ـ لا أريد معارك فرانكو.. فأنا لا أستطيع التعامل معها.

تلاشى المرح من وجهه فتركه متعباً متوتراً. كان الجرح بارزاً هذه الليلة، وكأنه أحس أنها تنظر إلى جرحه، فتحرك فجأة ليدير وجهه بعيداً عنها.

قال بخفة: «حسناً، بدون معارك وبدون أشياء كثيرة أخرى».

جلست غريتا ووجهها مضطرب.. إنها المرة الأولى التي يشير فيها إلى أن شروطها تهمه. أحست لبرهة ببعض الأمل، فليته يهتم بها قليلاً فهي لا تطلب اهتماماً يوازي اهتمامه بتريشا. ثم نظرت إلى الجفنين الكسولين، والقناع الساخر، فأدركت أن كل ما كان يتحدث عنه هو التقاليد والاعراف.. فهو لا يحتاج إلى أن يحب سيدة ليعاشرها. أليس هذا ما أظهره بدون أن يترك مجالاً للشك.

عادت تغرق نفسها في الوسائد على الأريكة وهي تشعر بالإحباط. وقف فرانكو ليتقدم منها فجلس على طرف الأريكة يدلك قدمها بحركات ثابتة قوية:

ـ أضيفي إلى هذا العروض الخاصة.. كنت أخشى أن أضطر إلى حملك من هناك هذه الليلة.

ـ كان ذلك سيكون صورة رائعة!

نظر إلى قدمها مبتسماً ابتسامة قلقة:

ـ أتعنين.. الجميلة والوحش؟

لم تستطع تحمل هزئه بمظهره.. كان يؤلم نفسه بضغطه المتواصل على الجرح. وقد آلمها هذا عظيم الألم حتى عجزت عن التعامل مع ألمه وألمها. لكنها قالت بثبات:

ـ أنا عروس، لا وحش.

رفع نظره إليها وعيناه تضحكان.. أحست به يكاد يميل لبعانقها فتشنج جسدها كله ولكنه عوضاً عن ذلك توجه إلى النافذة قائلاً لها من فوق كتفه بخفة مرحة:

ـ عروس معاقة.. إن لم تحصلي على حذاء مناسب لتسيري فيه ألغيت الزفاف.

بعد هذا المزاح، ضحكا وتبادلا الأحاديث الخفيفة. فيما بعد أوصلها إلى منزلها دون أن يمسّ أكثر من كم فستانها.

* * *

تزوجا أخيراً وسط حفل بسيط أقيم في مكتب تسجيل عقود الزواج وكانت الصحافة قد فشلت في معرفته. ارتدت غريتا بذلة عاجية اللون، ترافقها اللآلىء التي أهداها إياها الليلة السابقة. أما البارونة فأُخرجت من المستشفى للمشاركة بحفل الزفاف ولكن ابن أخ فرانكو، اليكسي لم يأت من فرنسا. وكان ادغار وجانيت الشاهدين.. فكرت غريتا في دعوة ديسموند يورك ولكنه كان خارج المدينة وبهذه المناسبة تناول الجميع غداء في مطعم فندق شهير، قبل أن يسافرا إلى الكونيتا.

بدا كل شيء بالنسبة لغريتا غير حقيقي.. فقد سارت الترتيبات كدقات الساعة ولكن لم يكن في الحفل ما هو هام بطريقة مميزة إذ كان

يمكن أن يطلق المرء على الحفل اسم مناسبة أو غداء مع أصدقاء لأنه افتقر إلى ميزة تميزه من سواه.

لكن ادغار وجانيت كانا نعم الرفيقان وقالت جانيت: «أظنكما ستقيمان حفلة كبيرة حين تصبح آني أفضل حالاً».

رد فرانكو: «يا لأفكارك التقليدية، جانيت!».

نظرت إليه دهشة:

ـ حسناً. . ألن تفعلا؟ أعني ألا يتوقع الناس أن. .؟

هز كتفيه:

ـ سنفعل ما يحلو لغريتا. فلن أقيم الحفلات لأرضي الناس بل لأهب زوجتي السعادة.

ابتسم ادغار وجانيت. . وقد بدا لهما الأمر رائعاً بالطبع. . لكن من الغريب أن يبعث هذا إلى غريتا الكآبة، فلو كانت تريشا محلها لعنى فعلاً ما يقول ولكانت ابتسامته هذه صادقة ليس الهدف منها الرسميات.

فيما كانا متوجهين إلى المطار سألها عن تلك الكآبة التي لاحظها قبل الآن.

ـ ما الأمر غريتا؟

أدارت وجهها عنه «لا شيء».

ـ يا فتاتي العزيزة. . لديّ عينان، أتظنين أنك برفضك النظر إلي، لا أستطيع رؤيتك؟ كان هناك شيء ما، وأريد معرفته.

تنهدت: «حسناً ما دمت مصراً سأخبرك، في الواقع لم يبد لي الحفل حقيقياً. وهذا ما أخافني برهة. لقد سار كل شيء بسهولة ويسر ونظافة. ولكن لم يكن أي مما مضى حقيقياً».

ران الصمت دقيقة ثم قال بسخرية عميقة:

ـ حسناً. لن يكون الأمر حقيقياً. . أم تراه سيكون؟

ارتدت عيناها إليه مذعورة، وكانت على وشك الرد بقسوة وحدّة،

لكنها كبحت اندفاعها للقول «سيكون كذلك، لو كنت أنا تريشا».

سينجح هذا الزواج فقط إن توقفت عن التفكير في تريشا وإن تذكرت أن هذا ما لم يكن يريده حقاً. لذلك كبحت اندفاعها الفجائي نحو التمرد، وأخفضت عينيها، ثم قالت بهدوء: «لا، لا أعتقد هذا؟».

* * *

٦ ـ قيود القلب

كان السكون تاماً. هناك في الوادي البعيد صوت آلة ما، ربما هي مولد كهربائي.. أما هنا فالصمت الصمت.

تقلبت غريتا في فراشها باسترخاء وترف استجابة لنداء الاستيقاظ. كانت الشمس تتسلل عبر النافذة المفتوحة حاملة رائحة أشجار الليمون، والبحر. ظلت برهة مضطجعة في هدوء، ثم فتحت عينيها فإذا فوقها ستائر السرير الحريرية المتهادية بلطف في النسيم العليل المندفع من البحر، فمدت يدها بتكاسل تلمسها مفكرة بقلق بأن أول ما عليها التفكير فيه عند صحوها في المنزل، هو أن تنظر إلى الساعة.. تمطت، ثم خرجت من السرير.

الغرفة بسيطة، لكنها غاية في الترف وما يوحي بذلك الخزانة المحفور عليها شعار النبلاء والمقاعد التي يعود طرازها إلى عهد لويس الخامس عشر. نظرت غريتا إلى ملابسها، المرمية بدون عناية ليلة أمس على إحدى القطع الأثرية. كانت هذه العيشة التي تعيشها متناقضة تناقضاً تاماً مع تلك الحياة التي عاشتها في شقتها.

دنت من النافذة لتستند إلى حافتها تاركة لريح البحر الدافئة حرية العبث بشعرها.

في لندن رافقتها تريشا لشراء ثياب كلفتها مبالغ طائلة تفلس مصرفاً، ولكن فرانكو دفع لها بسخاء ولكنها في ذاك الوقت لم تكن

مدركة إلى أي حد ستختلف حياتها. بات معظم ما شغلها وأهمّها طوال حياتها غير مهم.. فلم تعد مضطرة لتذكر الأشياء الصغيرة كشراء الشامبو أو ملح للمطبخ لأن هذا كله كانت تقوم به لوريتا. ولم تعد تقلق على خسارتها زراً أو على تمزق جورب لأن التصليحات تقوم بها الآن فتاة ماهرة أما «المشدات» الممزقة فقد كانت تُرمى بعيداً. المال الذي لم تكن تفكر فيه كثيراً، أزال من أمامها معظم العقبات اليومية.

وهذا ما تركها مع.. ماذا؟ تنهدت غريتا، ثم ألقت نظراتها على المناظر الطبيعية الرائعة.. وفكرت: أمامي وقت طويل لأفكر وأتذكر ولاتطلع إلى المستقبل وأقلق.. ورغم هذا كله ها هي في منزل نفيس كالجوهر، حرة من كل قلق، العناية بها تقوم على قدم وساق، تنعم بأشعة الشمس وليس في قلبها إلا هاجس ونذير مبهم.. فلماذا؟ أيكون السبب هو هذا الزواج الغريب؟ لقد قلقت منه سلفاً، ولكنه الآن يبدو ناجحاً نجاحاً لم تتوقع حدوثه البتة.

كان فرانكو شريكاً سهل المعشر والعمال ودودين، والجيران طيبين فلم يذكر أي منهم ولو بإشارة أو كلمة إلى أنه يتذكر غريتا في أيامها الماضية البائسة. فلماذا إذن تشعر بمثل هذا القلق؟

عادت إلى الغرفة. فوقعت عينها على غطاء الفراش المبعثر وتنهدت.. الرد على تساؤلاتها غير بعيد فقد توقعت أن يكون فرانكو بعيداً عنها مشغولاً بشؤونه كما كان يفعل منذ سنوات ولكنها كانت مخطئة.

في البدء، كان يمضي معظم أيامه معها مع أن من الواضح أنه ابتعد عن «الكونيتا» فترة طويلة وحالما عاد راح يزور الحقول متحدّثاً إلى مستأجري الأراضي، مدير المزرعة متجولاً في البساتين سيراً على الأقدام طوراً وعلى ظهر الجواد تارة ولكنه في كل الحالات كان يريد أن تكون غريتا برفقته.

شعرت بادئاً ذي بدء بالإحراج وكانت تفاجأ كلما ناداها أحدهم بالسنيورا البارونة.. ولكن ما من أحد أظهر لها العداء وهذا ما كانت تتوقعه وما من أحد أظهر ازدراء كانت مستعدة هي لمواجهته. كان الجميع مثل لوريتا، لطيفين مهتمين، مرحبين.

علقت على هذا أمام فرانكو الذي منحها تلك الابتسامة النادرة التي لم تكن لتتأخر عن الاستجابة لها.

- إنهم رومانسيون.. كانوا قد فقدوا الأمل بالنسبة لي ولأنني أخيراً تزوجت راحوا ينظرون إلى الأمر وكأنه قد عالج مشاكلهم المنزلية الخاصة.

حارت غريتا: «ولكن تريشا».

اختفت بسمته: «خطبت تريشا في روما وفسخت الخطوبة في لندن ولم يكن للخطوبة تأثير كبير هنا».

- أما أنا فأظهر يومياً على الشاشة.

ضحك مسترخياً: «صحيح، بم تشعرين وأنت نجمة المنطقة الآن؟».

دفعها مزاجه إلى الإحساس بالدفء: «إنها مسؤولية».

أطلق ضحكة صارخة قبل أن يمسك يدها. «إذن لا تنسي دورك أبداً».

مال عن ظهر جواده ليلثم طرف أنفها.

كانت غريتا قد اعتادت على هذه المداعبات الصاعقة، وقد تمكنت من الثبات على ظهر جوادها، ومن عدم شد اللجام بحيث يتراجع الحيوان المسكين. ولكنها رغم ذلك عجزت عن المحافظة على أنفاسها مستقرة وعن منع الاحمرار من ارتقاء وجنتيها. وكان فرانكو يُظهر ابتهاجه بتأثيره فيها ويظل مرحاً في مزاج طيب ما تبقى من اليوم.

بدأت غريتا تدرك أنها لم تكن قد شاهدته سعيداً قط. ففي لندن

كانت تراه قلقاً مشغول البال، محظم الفؤاد لتخلي تريشا عنه، كما كانت تظن.. منذ عشر سنوات كان كثير الشك وكان هدفه الأساسي الحؤول دون وقوع جدته في حبائل أشخاص لم يعتبرهم سوى عصبة محتالين.. ولم تشاهده قط خالي الوفاض من الهموم... وأدركت كذلك مع الأيام، أنه لم يطلق بعد عنان سحره عليها بالكامل.

أوه.. تعرف نعم المعرفة أنه مشهور بسمعة لا تقاوم.. أو بالأحرى هذا ما يقوله مواطنوه. فهو قادر على الحصول على أية امرأة مقابل ابتسامة. ولكنها كانت تظن أن هذا خرافة محلية وخيال ووهم بشأن الأعزب الأكثر شهرة في الريف، ولكنها الآن رأت تلك الخرافة على ما هي عليه حقاً: الحقيقة غير الملونة. فحتى هي وقعت ضحية الخرافة وعرفت أنه لا يرغب في تريشا فقط، بل أنه في أعماق قلبه يبغضها هي غريتا. ولكن حين كان يضحك لها، أو يدفع قبعتها فوق عينيها ليمسكها عالياً للمساعدة في الترجل عن ظهر الجواد، كانت تكاد ترمي كل وساوسها وحذرها أدراج الرياح.

صعب عليها مع الوقت أن تقول له «تصبح على خير» بهدوء في وقت تلمح فيه أضواء الشموع المرتعشة وبريق النجوم المتلألىء فوق الشرفة.

كانت أحياناً تتساءل عما إذا كان يعرف كم أصبح الأمر صعباً عليها.. ففي نظرته إليها شيء ما، إن نظرته ثاقبة باحثة. هناك شيء ما في الصوت اللطيف الكيّس الذي كان يرد عليها متمنياً لها ليلة خالية من الإزعاج.

حين كانت تأوي إلى غرفتها الأنيقة لم تكن تستطيع النوم حتى وإن كان النعس يغلبها. وكانت تقنع نفسها أن السبب هو الحرارة.. وتسرع إلى فتح النوافذ نحو البحر ولكنها رغم ذلك كانت تعجز عن النوم.. ثم اعتقدت أن السبب هي الستائر المتدلية من قوائم السرير الأربع، أو

حجمه الضخم ولكن ذلك لم يحل دون أن يهجرها النوم وفي النهاية كانت تتوجه إلى الشرفة فتترك بابها مفتوحاً ليتدفق الهواء العليل.

في إحدى الليالي، وفيما كانت مضطجعة تحت شرشف وحيد انفتح الباب، وسمعت صريره. فتساءلت عما إذا كان السبب هو الريح في تلك الليلة الحارة. ولكن سرعان ما لاح لها ظل تقدم ليقف في أسفل السرير وكأنه ظل من الظلال الكثيرة في الغرفة.. ونطق اسمها بصوت ناعم.

لم يخطر ببالها أن تتظاهر بالنوم..

ـ ألم تتمكني من النوم؟ (سألها فرانكو).

وكأنه كان يهمس لئلا يوقظ أحداً في المنزل، وهذا أمر سخيف، نظراً لوجود الخدم في مكان بعيد.

دفعت غريتا شعرها الرطب عن وجهها، وقالت: «الجو حار جداً».

جلس قربها في الفراش، ووضع مؤخرة يده على بشرتها، كانت يده باردة جداً وأحست بشيء يقفز في داخلها ثم يتلوى كأنها تلقت صدمة كهربائية خفيفة.

ـ ربما عملت جاهدة أو تركت نفسك تحت أشعة الشمس مدة أطول مما يجب.

هزت رأسها نافية: «كنت حذرة فأنا أعرف كم من الوقت يمكنني المكوث تحت أشعة الشمس فهذه ليست المرة الأولى التي أعيش فيها هنا.. لا تنسى هذا».

رد بلهجة غريبة: «وكيف أنسى؟».

غريتا، التي لم تكن تفكر ساعتئذ بمعركتها القديمة، شهقت، وعضت شفتها ثم اجتاحها الإحراج والصمت.

جلس بلا حراك.. بدا في الظلام كبيراً وهمياً.. وبدأت

ترتجف.. أحست وكأنها على حافة جرف كبير لا تعرف كيف وصلت إليه، وليس لديها فكرة عما يجب أن تفعله، أو حتى عما تريد.. وحبست أنفاسها. أخيراً تكلم بصوت منخفض مضطرب.

ـ أنت لست سعيدة.. أليس كذلك؟ هذه هي المشكلة الحقيقية.. لا تنفكين عن تذكر الماضي.

عندما تحركت بحدة أدار رأسه بحركة بطيئة، فالتقطت نظرتها لمعان عينيه.. كان ينظر إليها. ثم قال ببساطة:

ـ أرى هذا بوضوح. في لحظة أراك مستمتعة وفي أخرى تتقوقعين وكأن الماضي يقض مضجعك.. غريتا.. اتركي الماضي خلفك.

أغمضت عينيها لهذا الرجاء، وسألت بقلق: «كيف».

ـ مضى عليك عشر سنوات بحق الله! فمهما كانت الذكرى سيئة فأنت لم تعيشي مع عمك في السنوات العشر المنصرمة لذا ليس على هذه الذكرى التحكم بحياتك. يجب ألا تسمحي لها ولن أسمح أنا لها.

الأمر مضحك حقاً: إنه يعتقد أن حياتها مع غودفري هي ما تبعث إليها الخجل. هل نسي دوره في حياتها، هذا دون ذكر سبب هربها من إيطاليا؟ هل نسي أنه حملها إلى المنزل، واعتنى بها ثم نعتها بالمبتزة؟ هل نسي أنه احتواها بين ذراعيه في مكتبته؟ هل نسي المال الذي رماه لها ليشتريها؟ وليتخلص منها؟

مد فرانكو يديه وأمسك كتفيها، يهزها قليلاً: «ردّي علي».

ـ ليس الأمر بهذه السهولة.

ـ أما زلت تلقينه؟

ـ غودفري؟ أوه.. أجل. إنه يظهر لي من وقت إلى آخر.

كادت تقول إنه يظهر عادة حين يحتاج إلى المال ولكن فرانكو يعرف ذلك، ولا تريد أن تقول له لئلا تعطيه أسباباً أخرى ليكرهها..

ـ أيمكن أن يلحق بك إلى هنا؟ أهذا ما يخيفك؟

ـ من يعلم؟

ـ أتظنين أنني غير قادر على حمايتك؟ أتظنين أنني سأسمح له بإزعاجك؟ اعلمي أنه لن تتمكن قدماه من وطء أرضي.

بدا متجهماً وأحست غريتا بالأسى على عمها إن حاول الاقتراب. وليته لا يحاول لأن ذلك سيكون الإذلال النهائي له..

قالت بكياسة: «واثقة أنا من قدرتك».

تنهد: «إذن، لماذا..؟».

أحست بالخطر وهو شعور يداهمها أحياناً فابتلعت ريقها بصعوبة، وبدا صوت ريقها راعداً في الظلام.. فقال فرانكو بصوت منخفض:

ـ غريتا، لا يعقل أن تتركي نفسك مغلولة بالقيود إلى الأبد.

ردت بصوت لم تتعرف إليه: «لا أفهم قصدك».

بدا متردداً، ثم مال ببطء شديد إليها فحبست أنفاسها. كان يقترب بلطف حتى كادت تشعر بأصابعه على بشرتها وعندما مرر ظاهر يده على خدها شهقت بصمت فيما تشنج جسمها كله.. ربما هي أخف لمسة ممكنة ولكن كل ذرة في داخلها استجابت لها، وكأنها قطب مغناطيسي انجذب إليه جسمها كله أو كأنه حقل مغناطيسي قوي عجز أمامه دفاعها الخائف عن مقاومته.

تمسكت بأطراف الغطاء، وكادت تتراجع عنه..

قال لها: «أتعلمين، في كل مرة أتلقى منك رسالتين متباينتين؟».

ـ لا أفهم.

ضحك بعذوبة ولم يظهر أنه انزعج من تجهم صوتها:

ـ إذن، فلأشرح لك أو بالأحرى فلأظهر لك.

صاحت وهي تضغط نفسها على الوسائد: «ماذا تريد؟».

ـ أوه.. تعرفين ما أريد وليس صعباً معرفة ما تريدين أنت، أو ما

لا تريدين! وهذا مثير للاهتمام أكثر.. مثلاً: أحياناً ترتدين عني كالآن وكما حدث في فندق ادغار وجانيت.

تجاهل شهيقها الخائف، وأكمل:

ـ وأحياناً أخرى أراك مترقبة وكأنك راغبة في أن ألمسك، وكأنك تريدين لهذا الشبح «الزواج» أن ينقلب حياً.

صرخت رافضة غريزياً: «لا».

ـ غير أن هذا أمر طبيعي.. أنت شابة، حساسة، وجذابة..

كان سيقول شيئاً آخر.. ما هو؟ أهو شيء يكشف أنه لاحظ جوعها فأشفق عليها منه؟ إنه خبير ذو تجربة تفوق تجربتها أضعافاً مضاعفة لذا هو يعرف الانجذاب الجسدي حالما يراه. أيظن أنه مدين لها بإرضاء رغباتها؟

تابع بصوت جاف:

ـ لماذا التظاهر؟ لماذا تحاولين بدون توقف التصرف وكأن لا مشاعر عندك؟ ليس مخجلاً أن تكوني طبيعية.

تلوّت غريتا فوق الفراش مبتعدة عنه.

ـ أنت.. مخطىء.. أنت لا تفهم... أنا لست..

ظل فرانكو هادئاً بشكل يثير الجنون وقال يقاطعها:

ـ كما قلت لك. دعيني أظهر لك.

لم يقم بأية حركة طائشة أو خرقاء.. أحست غريتا أن من يغويها هو فنان. حاولت تخليص نفسها من الغطاء الذي التف حولها، وحاولت الخروج من الفراش ولكنه أمسك بها بسهولة، وضمها إليه.

فأغمضت عينيها وشعرت برأسه يدنو منها رويداً رويداً وسمعته يتمتم ثانية: «فلأظهر لك».

عانقها بجسده فنبض الدم وتناغم مع دمه وشعرت أن من يقود خفقات قلبها هو خفقات قلبه هو. وتاهت في غياهب عناقه وارتفعت

فوق غمامة حريرية من المشاعر. سلبها عناقه إرادتها وأصبحت له، وبدا أنه يتنفس عنها.

ولكنها سرعان ما أحست بخشونة جرحه على بشرتها فانطلقت الذكرى التي لم تستطع كبحها. فجأة عادت ابنة الثامنة عشرة وتهادى إلى ذاكرتها الجرح القاتل فتلوت سعياً إلى التحرر من طوق ذراعيه ثم خرجت من السرير مذعورة وقالت منتحبة:

ـ لا! ليس مجدداً.. لا أستطيع التحمل!

***

٧ ـ الجميلة والوحش

المنزل ساكن.. والوقت ما زال باكراً فالشمس نائمة والندى يتلألأ على أوراق الكرمة ولوريتا وزوجها نائمان بل الكلاب أيضاً ما تزال نائمة.

لم تكن غريتا قد فتحت من قبل الأبواب الزجاجية.. لذا تعاركت مع الرتاجات، محاولة ألا تصدر صريراً وأخيراً فتحتها ولكن كان عليها بعد ذلك أن تفتح الأبواب التزيينية التي تغطيها. وكان أن صدر عنها صريراً مرتفعاً فتسمرت غريتا في مكانها برهة ولكن ما من أحد خرج من المنزل الغارق في سباته فاطمأن بالها.

عندما خرجت مرت بالشرفة وبعريشة العنب وبالمرجة المخملية التي يستعملها عمال الحديقة يومياً. كانت ترتدي بنطلون جينز وحذاء رياضياً سرعان ما أصبح لونه أسود بفعل الوحل المشبع بالندى وسارت بين البستان.

إنها لم تنم الليلة.

فبعد أن أبعدت نفسها عن فرانكو، أحست باليأس والانسلاخ. ولم تعد تريد إلا أن يتركها وكان قد لاحظ هو ذلك فهو أدهى من ألا يلاحظ.. وأذكى من أن يلمسها.. لكنه لم يخرج، بل ارتد إليها، متكئاً على السرير، يسأل بتملق سعياً إلى أن تصف له الصورة التي في رأسها والتي تملأها بمثل هذا الألم ولكنه لم ينجح، إلا أنه أحيا

www.anawyna.com

الماضي بقوة جعلت غريتا بعد خروجه تتقلب في فراشها غير قادرة على التملص منه.

الآن، والشمس ما تزال مختبئة راحت تسير في الحقول وتحت أشجار بستانه قلقة.. وكان هنا.. هذا المكان الذي رأته للمرة الأولى بل كانت قد رأته من قبل في الاسطبل يتحدث إلى تريشا. ثم شاهدته ثانية في مقهى ادغار وجانيت حين لفّ آيمز داوكنز البغيض ذراعيه حولها..

يومذاك نظرت إلى الصالة الباردة فالتفتت عيناها بتينك العينين الخضراوين، الباردتين اللتين تفوق برودتهما برودة المقهى المبرّد. كان أدغار هو من أخبرها عن هويته وادغار أيضاً هو من حذرها أن فرانكو يحمي جدته بضراوة، وأنه سمع ولم يوافق على أن تعمل مساعدة لتريشا في إدارة مدرسة الفروسية.

أسندت نفسها إلى جذع شجرة برتقال ووقفت في دائرة أغصانها بحيث أصبحت مستترة عن الأعين إن وجدت. كان الجذع خشن الملمس ولكن دافىء. وكان للأوراق رائحة حادة خفيفة تتذكرها دائماً في أحلامها. مع أن الوقت حين وجدها كان ليلاً لا نهاراً.

رفعت رأسها ونظرت إلى الأغصان المكسوة بالأوراق ولكن الدموع حرقت مآقيها.. أمر غريب ففي ذاك اليوم لم تبك وما بكت فيما بعد.

ما حدث كان غلطة غودفري، على الأقل كبداية.. كان متورطاً بصفقة مع آيمز داوكنز.. والصفقة كانت قد بلغت مرحلة مألوفة لغريتا، وهي مرحلة تكون فيها الأمور جارية في طريق خاطىء. غودفري كان قد صرف طبعاً كل الأموال التي دفعها له آيمز سلفاً. والرجل يريد ماله الذي لم يعد غودفري يملكه، ولكن غودفري كعادته لم يصدق أن المشروع ميؤوس منه.. كان يريد بعض الوقت والقليل

من المال.. وسمح داوكنز لنفسه، ولسبب مجهول، أن يقتنع.

إلا أن السبب لم يكن مقنعاً جداً. وربما كان الجميع يعرفه، الجميع إلا هي وزادتها الذكرى إذلالاً..

عشر سنوات مضت، كانت في الثامنة عشرة تقضي معظم أوقاتها وهي مرتدية السروال القصير والتي شرت والسبب عدم وجود مال لشراء ثياب جديدة.. كان تعليمها المتقطع والضئيل لا يؤهلها للعمل في مجالات كثيرة وكانت تكسب ما تستطيع كسبه: فبمساعدة ادغار وجانيت حظيت على العمل ساقية عنده وكانت في أحيان أخرى تسيس الجياد أو تدرب المهور الصغيرة، أو تشرف على تعليم الصغار ركوب الخيل فوق الشاطىء.

وكانت طوال الوقت تدخر المال لتدفع ثمن تذكرة العودة إلى انكلترا لتسعى إلى شيء من التعليم علها به تجد عملاً فلم تكن طرق غودفري المتسكع المشكوك فيه تلائمها وأضف إلى ذلك وجود عشيقته التي كانت تعيش معها تحت سقف واحد يومذاك ولم تكن تلك المرأة تحب أن تشاركها في المنزل فتاة يتيمة في الثامنة عشر من عمرها.

تساءلت غريتا دوماً عما إذا كانت الفكرة فكرة كريستينا، لا فكرة غودفري.. فرغم لا مبالاته كان مولعاً بها، ويعرف مدى براءتها ولم يخطر بباله قط استغلال جاذبيتها وشبابها لتسديد ديونه.

ولكن ذلك الوقت كان مختلفاً.. فقد أعلن غودفري وكريستينا أنهما مسافران إلى فرنسا بحثاً عن شركاء جدد لمغامرتهما العقارية، وطلبا من غريتا البقاء للعناية «بفيلا برانكا» التي كان عمها مكلف بالعناية بها. ثم قال عمها إنه لا يجوز بقاءها في الفيلا وحدها لذا سيطلب إلى صديقه الطيب آيمز قضاء بضعة أيام في الفيلا برفقتها..

كان داوكنز رجل أعمال ثري طلق زوجته وكان هذا الطلاق قد أثر فيه.. إذ لم يكن يتوقف عن الكلام عن زوجته السابقة التي يشعر أنها

خدعته، ولم تكن غريتا تأسف عليه، كما لم تكن تستسيغ طريقته في وضع ذراعه عليها. غير أنه لم يخطر في بالها أن رجلاً يكبرها هذا الكم من السنوات قد يفكر فيها بطريقة رخيصة.

وفي هذا كانت مخطئة، والمؤسف أن أهل المنطقة جميعهم كانوا يدركون ذلك فقد ذكرت لها تريشا فيما بعد:

ـ ظننتك تعرفين.. كان الأمر واضحاً جداً.

بكت غريتا: «ولكن لماذا؟».

نظرت إليها تريشا وهي تكاد لا تصدق:

ـ أنت صغيرة، رائعة ولا ترتدين ما يكفي من الثياب.

وكان هذا صحيحاً، مع أنها وهي في الثامنة عشرة لم تكن تحس أنها رائعة.. بل كانت تحس أنها مراهقة خرقاء بساقيها المديدتين السمراوين، وبشعرها الطويل الكثيف الذي يكاد يبلغ حدود خصرها. لم يكن لديها ثياب أنيقة أو ماكياج وما كانت يداها ناعمتين.. وغالباً ما كانت تركض في الجوار حافية القدمين.. وكانت تحس تماماً أنها القنفذ الذي أطلق البارون اسمه عليها.

الآن، وهي تتذكر ذلك سحبت أنفاساً متهدجة.. قبل تلك الليلة لم تكن قد قابلت البارون سوى مرة، فحينما كانت تزور جدته، كان إما في مكتبته وإما في الخارج، ولم يحدث أن التقت به قط. لكنها في أحد الأيام وفيما كانت على شرفة «فيلا برانكا» تنظفها مر أمامها فرانكو الذي كان فوق صهوة جواد. رفعت رأسها وشاهدته، طيفاً أسود يتمايل تجاه حدود الأفق، يجلس على صهوة جواده، وراء جدار الحديقة. وأحست أنه كان يراقبها لبعض الوقت. وكان صوته متزمتاً حين قال «سنيوريتا أورك».

هزت رأسها إيجاباً فأردف: «أعتقد أنك تقومين بزيارة جدتي».

هزت رأسها ثانية، ثم تقدمت نحو الجدار الذي يقف الجواد خلفه

دون حراك. وقالت له: «إنها في غاية اللطف معي».

ـ أعرف هذا، لا تستغلي لطفها هذا.

شهقت شهقة استغراب، كانت صغيرة جداً، وكان هو شخص يؤثر في النفس بثيابه السوداء وبجرحه الوحشي وبصوته البارد الرنان.

ـ إنها امرأة عجوز. لكنها ليست غبية وما أنا بغبي كذلك.. أعرف عمك سنيوريتا أورك.. إن اقترب من جدتي، وبأية طريقة كانت فسأرميه في السجن.

وبينما كانت مصعوقة من فظاظته، رفع قبعته الضيقة الواسعة الإطار بطريقة ساخرة:

ـ أرى أنني أوضحت ما أقول.. نهار سعيد.

صدمت غريتا وأحست بالألم. لكن ذلك الألم لم يكن شيئاً إذا ما قورن بما شعرت به فيما بعد. ولكن لم يكن لديها وسيلة لتدافع فيها عن نفسها.. أما البارونة فظلت لطيفة مضيافة كعادتها وكانت تعطي غريتا الكتب وتخبرها عما يجري في العالم، وتنصت لما تقوله الصغيرة.

ولهذا السبب لجأت إليهما في الليلة التي قرر فيها آيمز داوكنز إن يقبض منها ديونه، إذ كانت موقنة من أن البارونة ستساعدها وتقدّم لها المأوى..

كانت قد انتزعت نفسها من قبضة داوكنز الغاضب، وقفزت عن غير وعي عن الشرفة، ومنها إلى الأرض الوعرة خلف جدار الفيلا ولكنها كانت ليلة صافية استطاعت فيها رؤية أنوار الطريق العام الساحلي، وكأنها علامات فارقة. وكان الركض إلى الكونيتا أمراً شاقاً خاصة وأن الارتباك مستول عليها والرعب متملك نفسها ولكن هذا الركض لم يكن مستحيلاً. صحيح أنها جرحت بشرتها بأشواك لم ترها وتشعّث شعرها من جراء الأغصان المنخفضة ولكنها في النهاية

وصلت. أعلنت الكلاب عن وصولها فقد شرعت بالنباح حالما تقدمت من جانب التل، عبر أشجار المشمش واللوز، ثم بستان البرتقال خلف المنزل. كانت في تلك الساعة في غاية الإرهاق لذا حينما اصطدمت قدمها بغصن مقطوع، استلقت على الأرض تلهث غير قادرة على النهوض.

هناك وجدها فرانكو. . سمعت نباح الكلب وجلبة الناس الخارجين من المبنى وهم حاملون المصابيح التي كانت ترتجف في الظلام، ثم طفقوا يفتشون في الأرض. وكان من سوء حظها أن من بحث في البستان هو البارون الذي التقطها مصباحه اليدوي.

سمعته يصيح: «يا رب العالمين».

ثم رفعت نظرها إليه فإذا طيف ضخم يلوح وراء نور المصباح اليدوي، وكان صدرها يعلو ويهبط بعذاب، وضع مصباحه بحذر والتقطها. لم تكن تدرك كم من السهل فعل هذا، ولأنها خرجت للتو من ذراعي داوكنز المهاجمتين ذعرت خوفاً غير أنه لم ينتبه لذعرها.

في المنزل اعتنوا بها. . وقامت لوريتا بمداواة جراحها وكانت تطلق تعجبها واستغرابها من مظهرها الصبياني. أما البارون فكان ينظر إليها متجهماً. . أخيراً لوّح لمدبرة المنزل بالابتعاد.

وقال حالما أقفلت الباب وراءها:

ـ أخبريني بكل ما حدث، لو سمحت.

احمرّ وجه غريتا بطريقة تثير الإشفاق، لكنها لم تفكر في الكذب.

ـ ما حدث. . أعني. . أن غودفري. . سافر و. . .

أردف عنها بطريقة طبيعية: «وأصبح عشيقك أكثر فظاظة عما توقعته».

عضت شفتها: «ليس لي عشيق».

ـ لا؟ ورغم ذلك تسمحين له بأشياء حميمة؟

كانت تعرف أنه يتحدث عن آيمز داوكنز فحركت يديها المجروحتين بحركة لا معنى لها.

ـ إنه. . شريك غودفري في العمل لذا حاولت أن أكون ودودة معه.

سألها بازدراء:

ـ مثل هذه الليلة؟ إن هذه الكدمات والجروح لا تظهر أي نوع من الود. ولا أظنها أصابتك من شجر اللوز.

أحست بحمرة الخجل تطغى على وجهها، وقالت معترفة بهدوء:

ـ لا. . حاولت ولكنه لم يَصغ إلي. . كان كالمجنون. .

أطلق البارون تعبيراً كان يستخدمه الأولاد العاملين في الاسطبل. فذعرت، لا شك أنها لم تسمع جيداً! البارون الأنيق لا يستخدم ألفاظاً نابية كهذه بالتأكيد.

قال لها بصوت قاطع: «تابعي».

لكنها لم تستطع، فقد كانت مرهقة وضائعة ومرتبكة ولعل ما زادها إرهاقاً أسئلته القاسية. . قالت بصوت رفيع: «أرجوك».

عادت لوريتا إلى الغرفة حاملة مبذلاً أبيض طويل.

ـ حضّرت الغرفة الصغيرة. . وحملت إليك هذا لتتخلصي من هذه الأشياء القذرة الشريرة.

كانت نظرة البارون الباردة على غريتا، وسأل:

ـ أتتعمدين ارتداء ما يظهرك كالقنفذ؟

الغريب أن الاحتقار الذي سيطر على لهجته هو ما حطم روحها. إنها القشة التي قسمت ظهر البعير. . دهشت عندما سمعت لوريتا تساندها، فمدبرة المنزل لم توافق على أسلوبها في اللباس أيضاً ولكنها كانت تعتقد أن الفقر هو المسؤول عن هذا، أما البارون فلم يدرك الحقيقة. قالت لوريتا ولهجة تحذير في صوتها:

- الصغيرة ما زالت طفلة سيدي فرانكو، فلا تقس عليها بسبب مظهرها، الفتاة في مثل عمرها تنسى أنها أصبحت سيدة صغيرة.

التوى وجهه، وكانت المرة الأولى التي ترى فيها غريتا جرحه يتحرك، رأت عضلة متوترة قرب عينه تنبض.. فشعرت به يتألم أو يحس بالغضب، وكلا الأمرين قد يفضي إلى العنف، فارتدت تختبىء وراء كتف مدبرة المنزل.

قال بصوت خشن حاد، وعيناه الباردتان تومضان:

- لا أظن أن جروحها هذه المرة عائدة إلى تسلق الأشجار كما لا أظن أن ساقيها المغريتين مستترتين عن النظر.. أوه.. خذيها إلى الفراش بحق الله!

وخرج كالعاصفة من الغرفة.

اعتنت لوريتا بها كأمها. كانت ألطف من أي إنسان عرفته إذ قالت لها ألا تأبه للبارون الذي لديه مشاغل كثيرة. كما قالت لها إنه لا يعني ما يقول وسيكون آسفاً في الصباح.

وفي الصباح كان فعلاً ألطف ولكنه كان أيضاً بعيداً عنها بأفكاره وجسده.

حين علمت البارونة بما حدث استنكرت الأمر ولم تتمكن غريتا من البوح بكل شيء وكان واضحاً أن السيدة تعتقد أن تحرشات داوكنز صدمت الصغيرة. ولكنها لم تكن تعرف إلى أي حد كان الرجل عنيفاً معها.. وارتجفت غريتا دون أن ترغب في أن تخبرها.

قالت لها البارونة إنهم بلغوا داوكنز عن مكان وجودها، وإنهم أكدوا له أنها ستبقى معهم حتى تقرر ماذا تريد أن تفعل. ثم قالت لها إن فرانكو سيهتم بكل شيء.. صحيح أن غريتا قد ذعرت من هذا القول ولكن كان الوقت قد فات، وعلى أي حال لم يذكر البارون الأمر أمامها مع أنه قابل داوكنز وتحدث إليه.

ظلت في المزرعة أسبوعاً من القلق ولكن غريتا لم تصدق حظها الحسن ففي هذه المدة استراحت وتلقت الدلال وظلت تنعم بدفء الجدة حتى وصل غودفري متضرج الوجه، مهدداً متوعداً.

كانت قد علمت بالخبر من جلبة الأصوات التي ارتفعت في مكتبة البارون. وكانت لوريتا قد مرّت بها مسرعة في الممر قلقة تتوجه إلى غرفة البارونة.. فالجميع يعرف أن على البارونة ألا تثار فقلبها ضعيف وقالت لغريتا من فوق كتفها: «وصل عمك».

وهكذا دخلت غريتا إلى المكتبة.

كان غودفري يقف فوق السجادة الكشميرية أمام الطاولة المكتظة بصبح..: «... كل صحف أوروبا».

وكان وجه البارون قناعاً من الازدراء عندما رد: «سخافة».

- سيصدقونني لأن ما من امرأة قد تنظر إليك.. فهذا الوجه المشوّه يبعدهن عنك.. لذلك فأنت مضطر إلى..

ثم شاهد غريتا تقف بالباب فصمت.. ثم تقدم إليها ليمسك معصمها بيده الضخمة، قائلاً بخشونة:

- تعالي.. سنغادر هذا المكان.

انتزعت غريتا يدها منه: «لا».

نظر إليها دهشاً، فهي لم تتحداه قط: «ماذا تعنين؟».

- لن أرافقك!

- أنت مجنونة.. ماذا ستفعلين؟ لا مكان لك تأوين إليه.

ترددت غريتا فجأة، أما هو فضاقت عيناه الحمراوان قبل أن يلتفت إلى البارون بوجهه البشع:

- والله.. أنت قد..

صاح به: «أصمت».

كان صمته صمت من لسعته أفعى. فأخذت غريتا تنظر إليهما

مذعورة، ثم قالت وكأنما تسترضيه:

ـ غودفري.. سأكون على ما يرام. حقاً.. وسأتصل بك.. لكن أرجوك.. أرجوك اذهب من هنا.

نظر غودفري إلى البارون وقال: «ستدفع ثمن هذا».

ثم التفت إلى غريتا بعناد: «والله.. سأجعلك تدفع الثمن».

رد البارون وقد لاح على ملامحه الضجر:

ـ أنا واثق من أنك ستحاول.

مد يده إلى حبل الجرس الداخلي المعلق خلف الباب. وسرعان ما ظهر جوليو وكأنه كان يقف وراء الباب، ظهر جوليو. فقال البارون بصوت لاذع كالسوط:

ـ سنيور أورك مغادر.. فلا تسمح له بالدخول إلى المزرعة ثانية.

ثم أدار ظهره بدون أن يقول وداعاً.. أما هي فقبلت غودفري لأنه كان بطريقته طيباً معها. للحظة بدا مذهولاً ثم استدار يسير أمام جوليو متعثراً.

تنحنحت: «أنا.. أوه.. أنا...».

التفت البارون إليها رافعاً حاجبيه: «أنت، ماذا؟».

كان الغضب ما زال بادياً عليه مع أن صوته هدأ قليلاً ابتلعت ريقها وحاولت مرة أخرى: «أنا آسفة».

ـ أوه.. لا تأسفي. ما من أحد حاول ابتزازي يوماً لذا أرى التجربة مثيرة للاهتمام.

هزت رأسها مذعورة: «يبتزك».

كانت تعرف أن غودفري يسلك أحياناً طرقاً ملتوية في أعماله.. ولكنها لم تكن لتظن أبداً أنه قد يكون مجرماً بكل ما للكلمة من معنى.

وقف البارون أمامها، ينظر إليها بعجرفة كان قد تخلى عنها في الأسبوع المنصرم.

ـ أخبريني.. أتقومين بهذا دائماً؟ أم تراها مغامرتك الأولى؟

نظرت إليه مصعوقة دهشة: «لا أفهم».

ـ ألا تفهمين؟ أيتها المبتزة الصغيرة؟

كان ملء ابتسامته الغضب.

ارتدت خطوة إلى الوراء فهز رأسه وأكمل:

ـ إنها خطة ذكية.. لقد فكرتما بها معتقدين أنني سأفعل ما تريدان لإنقاذ مشاعر جدتي.. لكنني أرفض الابتزاز.. لقد أخطأتما الحساب هنا.. يا ملاكي.

هزّت غريتا رأسها بارتباك وذهول: «أنا لا..».

قاطعها بازدراء: «أنت لا تفهمين أليس كذلك؟».

دفعت لهجته البرودة إلى دمها ولكنه أكمل:

ـ هذه هي زبدة الفكرة.. ابتزازي بشأن أمر لم يحصل قط ولكن يجب أن يحصل.

سألته خائفة مذعورة: «عمّ تتكلم؟».

مد يده يلمس صدغها بحركة رقيقة غريبة. ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ كل هذه البراءة.. هذه البراءة وهم يجب ألا تظهري على هذه الدرجة من البراءة لأنك قنبلة موقوتة.. والله وحده يعرف من ستؤذين فيما بعد.

تحرك بسرعة ليمسك بها وأحست بالعجز وفقدان التوازن والوهن والضعف.

ـ حسناً ستكتشفين هذه المرة يا حلوتي ما يحدث لك إن استمريت في ابتزاز الناس. وأنا أشك في أنك كنت تنجين بفعلتك دائماً، لأنك..

وصمت.. ثم أنهى كلامه بسرعة: «هذه المرة ستعرفين عاقبة

هذا الأمر».

طفق يعانقها ولم يكن في عناقه لطيفاً ذلك أنه لم يراع البتة حداثة سنها وعذاب مشاعرها. في البداية ظنت أنه يود معاقبتها فتسمرت في مكانها جامدة تتعلق بسيطرتها على ذاتها ولكنها سرعان ما أدركت أن هناك المزيد.. فرانكو غاضب بالطبع لأنها تتذوق الغضب في عناقه، إنه غاضب من نفسه ومنها وهو ينفذ انتقاماً بمداعبات مربكة. ولكنه بدا كذلك جائعاً وكأنه كان يرغب فيها رغبة عارمة...

***

في هذا البستان بالذات، ومنذ عشر سنوات، تذكرت غريتا كم نجح البارون في انتقامه.. كانت صغيرة جاهلة، تنحصر تجربتها كلها في تهجم الرجل الذي أخافها إلى درجة الفرار مذعورة. ولكن البارون كان مختلفاً، ليس لأنه أكثر براعة، ولا لأنه يحبها.

بعد صدمة الرعب الأولى، تعلقت غريتا الصغيرة به بشوق، لأنها للمرة الأولى تتعرف إلى مشاعرها الطبيعية التي أثارها هذا الرجل! كانت تدرك أن ما يحدث جنون فهما مختلفين في كل شيء في العمر والثقافة والبيئة الاجتماعية. لماذا إذن تحس بأنه الرجل الوحيد، الوحيد في هذا الكون.

لم تفكر في الدفاع عن نفسها، مع أنه لم يعاملها بأفضل مما عاملها أيمز داوكنز. ومع أنها لم تكن قد شعرت بما تشعر به الآن، وقد يكون هذا كله مثيراً للحذر ولكنها أحست أنه صحيح، وبشكل غريب.

تجاوبت معه ولكنه كان هو من ابتعد، إنها تذكر ذلك وكأنه حدث ليل أمس.. فما زال يغمرها ذاك الإحساس نفسه الإحساس بتجاوبها معه والإحساس بخيبة الأمل الشديدة حين ارتدّ عنها.

وقال ببرود، مع أن صدره كان يعلو ويهبط، وصوته مرتجف:

ـ مثير للاهتمام.. أهذا ما علمك إياه العم غودفري؟ أم هو الهام خاص؟

شهقت. أما هو فالتوى فمه وسلخ نفسه عنها وكأنه لا يطيق ملمسها، بدا وكأنه مضطر للتخلص من الذراعين الناعمتين الملتفتين بطواعية حول عنقه.

دنا من طاولته ووقف خلفها، ينظر إليها.. ولكنها شعرت، ويا للغرابة، بأنه يدافع عن نفسه، كحيوان في موقف حرج. ثم مد يده يجيلها في أحد الأدراج.. فجلست مذعورة مرتبكة.

ثم سمعته يقول بسرعة:

ـ يجب أن ترحلي.. أليس هذا ما تريدينه للعودة إلى انكلترا؟

أمسك بعض الأوراق النقدية في يده، وقدمها إليها بنفاذ صبر. فنظرت بغباء إلى المال الذي رماه إليها. لقد نعتها بالمبتزة، إذن فهو يدفع لها.. وأحست بالغثيان.

قال بصوت حاد حرقها كالأسيد: «خذيها، خذيها وارحلي».

وهذا ما فعلته، بالطبع.. فهل كان عندها خيار آخر؟

وسرعان ما رحلت لا تلوي على شيء ولكنها وصلت وهي لا تدرك إلى الاصطبل حيث نظرت إليها تريشا، وضمتها إليها وكأنها حيوان مسكين جريح.

لم تخبر تريشا بسبب رحيلها، لأن لن تصدق أبداً. فهي نفسها لم تكن تصدق ما جرى، لا تصدق نذالة غودفري ولا الجوع المحرق الذي اكتشفته في نفسها، ولا ألم النبذ والاحتقار.

فيما بعد وخلال تلك السنوات جميعها كانت تعود إليها ذكرى ذلك الأسبوع حية. وكان كلما اقترب منها رجل تتذكر حالها وهي بين ذراعي فرانكو مونتاغيو دو سانكور، فيصيبها الجمود. في النهاية، أخذت تأخذ الحيطة والحذر لئلا يقترب منها رجل.

ربما كانت مخطئة في هذا. . ربما لهذا السبب ما زال الألم حياً إنما دفيناً وقاتلاً ربما لهذا السبب لا تطيق حتى الذكرى.

عندما أشرقت الشمس أدارت رأسها إلى مؤخرة الشجرة وكانت وجنتاها مشبعتين بالدموع. . إذا كان الألم ما زال كامناً في داخلها وإذا كان الافتتان ما يزال أيضاً دفيناً فلساعدها الله على الجوع والافتتان.

من مكان ما في البستان، سمعت وقع أقدام. فتقوقعت في مخبئها لحظة لأنها تعرف من القادم. فلا يمكن أن يكون فرانكو قد نام أيضاً. . راقبته بألم وهو يتقدم.

كان يفتش البستان مرتدياً كيفما كان ثياب الفروسية، أحست أنه ارتدى أول ما وقعت يداه عليه.

خرجت من تحت الأغصان، وما أن رآها حتى برقت عيناه. . ثم سرعان ما انمحت تعابير وجهه كلها.

قال بصوت خفيض: «لا حاجة إلى الهرب. لقد أسأت فهمك ولكن أرجوك لا تجزعي فلن يحدث ذلك لك مرة أخرى».

***

٨ ـ القناع الضاحك

لم تتغير الأشياء حقاً بعد هذا. ولكن غريتا أصبحت أكثر حذراً فعليها ألا تدفع فرانكو إلى إساءة فهمها.

لم يظهر أن فرانكو قد لاحظ ذلك فهو ما يزال يحتفظ بها إلى جانبه في النهار، وما زال يمضي الأمسيات معها وهو يروي لها تاريخ عائلته أو يلاعبها النرد، أو يداعبها بشأن لهجتها الانكليزية، وحينما كانت تراه متعباً كانت تعلم أن ذلك بسبب العمل. وكانت تسمعه بعد أن تأوي إلى فراشها يتوجه إلى مكتبته وتراه في الصباح الباكر يدخل إليها أيضاً وحين احتجت على ذلك قال:

ـ لدي أعمال كثيرة متراكمة، فقد أمضيت وقتاً طويلاً أسعى وراء اليكسي هذا الصيف، ووراء آني. . لذا أمامي سلسلة كاملة من البحوث أراجعها.

ـ بحوث؟ أتقوم بإجراء استفتاءات بشأن كرة القدم؟

ضحك: «مع أن الاستفتاءات ليست أصعب. أنا عالم كيميائي. . حقاً! أعمل بعض الوقت في جامعة نابولي والبعض الآخر في باريس. وأعمل هنا حين أكون بحاجة إلى التفكير».

ـ هنا. . ؟ لكن ألا تحتاج مختبر أو إلى شيء مشابه؟

ضحك عالياً:

ـ هذا صحيح. ولكن في باريس يقومون بالاختبار وأنا بالكتابة.

www.rahawyna.com

ضحكت غريتا ولكنها كانت تفكر.. فهذا جانب جديد من شخصيته لم تكن مستعدة له.. كانت تظنه لا يهتم إلا بأملاكه.

فيما كانا معتليين جواديهما قالت:

ـ أنت عابث عالمي.

ارتفع حاجباه: «ومن أين لك هذه الفكرة؟».

أشاحت وجهها عنه: «من الأخبار التي تروى عنك».

ـ الشائعات؟ أخشى أنني موضوع غير مثمر للشائعات.. كان للناس في هذه المنطقة حظ أوفر مع والدي الذي كان فعلاً ربيب الكازينوهات.

ـ ماذا؟

ـ ربيب الكازينوهات.. نعم كانت الكازينوهات مسكنه الثاني.. وكان له سيدة في كل عاصمة.. هذا ما يقولونه.

نظرت إليه بفضول: «يا الله..!».

كان يبدو وسيماً، عريض المنكبين يرتدي قميصاً أبيض ناصعاً يتموج مع نسيم الصبح المتدفق من البحر.

وأكملت: «وهل ورثت عنه هذا كله؟».

ـ حسناً.. أنا لا أقامر، إذا كان هذا ما تقصدينه أما فيما يتعلق بالسيدات فغير ممكن لأنني أبدو مثل فرانكشتاين!

قفز جوادها إلى الأمام، ولا بد أنها شدت اللجام. كان قلبها رغماً عنها يعتصر غضباً وألماً حين يتحدث هكذا..

سألته بحذر: «كيف أصبت هذه الإصابة؟».

شرد فجأة وابتعد بأفكاره فظنت أنه لن يرد ولكنه هز كتفيه:

ـ جرحي..؟ أوه.. حدث هذا في رحلة صيد سمك.. انزلقت السكين.. وكنت محظوظاً.

ـ محظوظاً؟

نظر إليها متجهماً: «لأنني لم أفقد عيني، أنا الآن على الأقل أملك نعمة البصر أما المرأى الحسن فحرمت منه».

أحست بالغثيان ولكنها سألت: «متى، متى حدث هذا؟».

قال من بين أسنانه: «لا تكوني هكذا؟».

ـ ماذا؟

ـ حدث هذا قبل مجيئك إلى هنا بفترة غير بعيدة. لو اتهمتني بالعابث يومذاك لصحّ إتهامك، ذلك أنني كنت أعيش عيشة جنون مطبق.

وانتهى هذا كله مع إصابته، هذا ما فهمته حتى دون أن يقول ذلك أرادت أن تضمه إليها ولكنها لم تجد الشجاعة الكافية. وسألت:

ـ أين حصل الحادث؟

ـ أين؟ أوه تعنين جغرافياً.. هنا. كنا نصطاد السمك في قارب. كنا نقيم حفلة منزلية.. وما حدث أفسد علينا مرحنا.

لا شك أنه كان يومذاك محطماً نفسياً. في منتصف العشرين شاب قوي مفعم بالطاقة، بوجهه الوسيم الوحشي، وجسده الرشيق.. وأكمل:

ـ لقد جعلني الحادث أكبر فجأة. إنما ليس قبل الأوان.

حاولت التظاهر بأن الدموع المختبئة في عينيها لم تؤثر في صوتها ولكنها فشلت:

ـ أنا آسفة جداً.

رد بوحشية: «لا تأسفي عليّ. لقد علّمتني ضربة واحدة عن الناس أكثر مما يمكن أن أتعلمه طوال حياتي».

فكرت غريتا: لكنها لم تعلمه محبتهم أو الثقة بهم كثيراً وقالت ببطء: «ألهذا لا تشعر بالسعادة سوى هنا؟ لأنني أراك سعيداً فعلاً هنا».

تشنج فجأة ولكن لم تلبث أن استرخت أساريره: «أجل».

ـ كنت مختلفاً في لندن ولكنني كنت مخطئة.. فأنت هنا في منزلك وديارك.

نظر إليها مفكراً: «أتقصدين أنني أشبه بحيوان جريح؟ أنت على حق كما أنك الأولى التي لاحظ هذا».

أدركت كم كانت رغبته في الزواج بتريشا قوية.. فهي جزء من بلده ومن أرضه التي يكون فيها آمناً. لم تكن تريشا جزءاً من العالم الخارجي القاسي الذي يشتمه ويسبّه. وتذكرت إهانة فنسنت له، فشدت يديها على اللجام ثانية.. ولكنها كانت ترى أن على فرانكو ألا يقبل الإهانة. قالت بحزن وكأنها تكلم نفسها:

ـ ليتني الزوجة المناسبة لك!

لم يجب فرانكو.. وتابعا المسير دقيقة وحوافر الجوادين تخب فوق الأرض خباً مرسلة الغبار إلى سفح التل... وكان ينظر إلى البحر. أخيراً قال ببطء:

ـ أعتقد أنني لا أؤمن بأشياء مثل «الزوجة المناسبة» «القرار المناسب» فالحياة ليست كتاباً مدرسياً فيها الأجوبة على الأسئلة في المؤخرة. فليست في الحياة أجوبة. نحن فقط نفعل أفضل ما نستطيع بواسطة ما نملكه.

ـ ولكنك تعرف ما تريده حقاً. أليس كذلك؟ كما تعرف ماذا يمكن أن تختار إن استطعت الحصول على ما تريد من هذا العالم؟

ـ وماذا يمكن أن يدفعه المرء مقابل هذا؟

ولوحت بيدها بنفاذ صبر:

ـ حسناً.. أجل.. وما يمكن أن تدفعه مقابل هذا؟ لكل شيء ثمن بطريقة أو بأخرى.

قادت جوادها بحذر في ممر ضيق منزلق، ثم أكملت:

ـ ماذا تريد حقاً، فرانكو.. إن خُيِّرت؟

أبطأ في الرد، حتى ظنت أنه تجاهلها.. لكنه قال كمن انتزع الرد منه:

ـ كدت أحصل على ما أريد يوماً أو بالأحرى أوشكت.. ولكنني لم أستحقه حتى في تلك الأيام.

ـ ماذا تعني؟

قال بصعوبة: «إن كان ما تريدينه يعتمد على إرادة شخص آخر. فلا يمكنك أخذه هكذا.. فإن لم يكن هذا الشخص يريده فما عليك إلا القبول».

اتجهت عيناها رغماً عنها إلى المباني البيضاء المنخفضة وما يحيط بها وهي المكان الذي تقيم فيه تريشا.. ضغطت على شفتيها.. كان يتضح لها شيئاً فشيئاً أن تريشا جرحت كرامته، وكان لها هي غريتا يد في ذلك.. رفعت رأسها تقول وعقدة الذنب واضحة في كل خطوط وجهها: «أنا آسفة».

التوى فمه أما جسده الطويل المستقر فوق السرج فبدا بحاجة إلى استجماع قواه ولكنها لم تلحظ هذا.. حين تكلم كان صوته غاية في الهدوء.

ـ لا تقلقي.. هناك أشياء لا يد لنا فيها.

لاحظت أنه تجنبها بقية يومه، وأبقى جرحه بعيداً عن نظرها.

عادا إلى الكونيتا فوجدا رسالة من اليكسي بانتظارهما. كانت رسالة دفعه إليها الواجب لا التأثر ولم يكن فيها حياة إلا حين وصف دروسه في الغطس تحت الماء. رمى فرانكو الرسالة على صينية الشاي لتقرأها غريتا، قائلاً: «يجسد هذا الصبي الكسل!».

ـ هل نستدعيه إلى المنزل إذن؟

فكر فرانكو قليلاً: «علينا ذلك في النهاية، ولكن علينا توظيف معلم لرفع مستواه إلى نقطة الانطلاق، على ما أظن.. لا يمكنه الذهاب

إلى المدرسة هنا».

- لماذا؟

نظر إليها بسخرية:

- أنت لم تلتقي إلى الآن المسخ الصغير الذي سيتكبر على جميع زملائه في المدرسة. إنه بحاجة إلى مدرسة يرمونه فيها أرضاً. أعتقد أن أفضل ما قد نجده في انكلترا. لقد تباحثت الأمر أثناء وجودي هناك.

- ألن يشعر أنني سلبته حقه في منزله؟

- لقد سلب نفسه هذا الحق لأنه لا يقوم بعمل كما أنه أقلق آني حتى انهارت.

- أتكرهه؟

- لا أعرف الكثير عن الأولاد.. ووالده.. لا.. لا يمكن لوم طفل.

قال هذا وكأنه يحاول أن يقنع نفسه، فأحست غريتا بقلبها يغور عميقاً ولكنها قالت مرحة:

- ماذا يريد أن يصبح حين يكبر؟ بارون؟

هز رأسه مسترخياً قليلاً:

- لا.. والشكر لله! فهو في الوقت الحالي لا يفكر إلا أن يصبح بطل العالم في الغطس أو أن يصبح أعظم مخترع أو كلاهما على ما أعتقد.

ضحكت غريتا وقالت انها ترفض الترهيب.. وكان هذا جيداً فقد بدا فرانكو يتطلع قدماً إلى عودة ابن أخيه بخوف.

وعرفت غريتا السبب حالما التقيا الصبي في المطار. كان مراهقاً مرحاً مفعماً بالثقة بالنفس، أشقر اللون منفتحاً ولكنه لم يكن يطيق النظر إلى فرانكو.. تذكرت غريتا أن فرانكو قد أخبرها عن هذا، ولكنها ذهلت من الصدمة حين رأت ذلك بأم عينها. الأمر الوحيد الذي

جعلها تطيقه هو تعاسة هذا الصبي الذي لم يكن بدرك مدى تأثير نفوره في عمه.

راقبته بشفقة أكثر من مرة وفرانكو يحاول التقرب منه، ولكنه لم يلق إلا الصدّ الواضح نفسه ثم فقد فرانكو أعصابه، فراح الصبي يتلوى ارتباكاً، وعاد إلى عدائه.

حاولت غريتا التدخل ولكنها لم تفلح. لكنها عادت فنجحت في التقرب منه وكان هو من لفت نظرها بشأن ما اعترى عمه من هزال. وقال لها بعد لعبة تنس قامت بينهما:

- أرى عمي مرهقاً.. أليس كذلك؟ هل أثّر فيه الزواج؟

كانت غريتا تراقب فرانكو بنفسها قلقة فهي ترى بشرته تتمدّد فوق عظامه وكأنه استنفذ كل اللحم وعاش الآن بقوة الإرادة فقط.. وكانت تخشى أن يكون هذا رد فعل لفقدانه تريشا لذا لم تجرؤ على إثارة الموضوع، ولكنها تعرف الكثير عنه، تعرف مثلاً أنه قادر على التعاطي مع عاطفة لا يرحب بها.. وقد ينهك نفسه حتى الموت ثم يضحك، وهذا بالضبط ما يفعله الآن، وكان يؤلمها ما ترى.. وها هو الآن هذا الولد يلاحظ هذا.. سألته بخفة:

- أتظنه أعزب بطبيعته؟

نظر إليها الصبي بوقار، فأدركت أنه ليس صغيراً كما يحاول أن يتظاهر. فقد كان وجهه الفتي الصافي قلقاً:

- لا أعتقد هذا.. مع أن والديّ كانا يقولان إنه لن يتمكن من إيجاد زوجة.

كان هذا أمراً غريباً فكيف سمحا لولد بالإصغاء إلى حديث كهذا، والأنكى أنه يتذكره. نظرت غريتا إليه باستغراب، فبدا لها واضحاً أنه يكره هذه الذكرى. أردف محاولاً أن يكون عفوياً:

- ربما لأنه بشع جداً.. أبي من سبب له ذلك الجرح.. أتعلمين؟

ذعرت غريتا، وقالت هامسة، وارتفعت يدها إلى خدها: «آه، لا!».

نظر إليها اليكسي بجد ثم قال بوقاحة:

ـ هذا يُظهره كفرانكشتاين.. أليس كذلك؟

سألت مذهولة وكأنما تسأل نفسها: «كيف؟».

ـ تقاتلا.. عمي فرانكو سلب صديقة أبي.. وأبي.. أقسم أن يشوّه وجهه الجميل وشوّهه فعلاً.

بدا الصبي وكأنه يتذكر الرواية التي قصّها عليه أبوه. كان تبجُّح الرجل الميت مثيراً للتقزز. عرفت غريتا أن لونها ابيضّ شحوباً، فنظر إليها اليكسي بخجل.. ثم أشاح بصره عنها.. ولكنها فهمت أن ما فعله أبوه بفرانكو، هو ما يسبب له الذعر من الجرح، إنه يشعر بالخزي والعار!

عقدت ذراعيها بعفوية حوله. كانت حتى الآن حريصة في تصرفاتها ولكنها في هذه اللحظة لم تفكر في هذا حتى. بادلها أليكسي عناقها بحماس.. ثم قال بصوت خفيف:

ـ قال أبي إن الرجال يسددون ديونهم بهذه الطريقة.

أحست غريتا بغضب مفاجيء:

ـ بل هذه طريقة التلاميذ الشريرين في تسديد ديونهم. لا طريقة الرجال.. إسأل عمك إن كنت لا تصدقني.

رفع اليكسي رأسه، وكانت عيناه مغرورقتين بالدمع، وقال باقتناع مطلق:

ـ لا أستطيع التحدث إليه بالأمر.. فهو يكرهني دون شك.

ـ يكرهك؟ لماذا؟

ابتلع ريقه بصعوبة:

ـ بسبب والدي الذي شوّهه.. والأمر صحيح بالنسبة للفتيات

أيضاً.. فتريشا لم تطق مرآه. لكن ألا تشمئزين أنت؟

ردت بثبات: «لا، لا أشمئز».

عاد اليكسي إلى ذكرياته: «كانت أمي ترفض النظر إليه لذا رفضت أن تلتقط لها الصور إذا كان على مقربة منها هذا ما أخبرتنيه جدتي».

سألته: «أليكسي، أيزعجك؟».

بدا مذهولاً.

ـ أعني، هل تشمئز كلما نظرت إلى وجه عمك؟

بدا حائراً: «لا».

ـ إذن هذا هو ما يهم. فليس رأي والديك هو المهم بل ما تشعر به أنت.

لم يقتنع فأحست بالعجز لأنها ما عادت تعرف ما تقول.. فإن طلبت منه ألا يشيح وجهه كلما تحدث إلى عمه دفعته إلى الشعور بما يفعل أكثر.

في النهاية، قررت أن تكلم فرانكو.. واختارت اللحظة المناسبة بحذر.

كانا يعتليان ظهور الخيل على الشاطىء وكان شعره يتطاير وهو محني فوق عنق جواده.. حين توقفا سحب نفساً عميقاً فبدا أهدأ حالاً وأخف توتراً من أي وقت مضى.

ـ فرانكو.

ـ نعم.

قرّبت جوادها من جواده، الذي كان يرعى بعض العشب البحري.

ـ أتعرف أن اليكسي يعرف كيف أصبت بالجرح؟

أدار عينيه الخضراوين إليها وقد ازدادتا اسوداداً. بدا برهة فرعوناً، فأكملت بهدوء، وكأنها تقدم الدليل.

ـ أخبره والده.

أغمض عينيه . . فأكملت :

ـ يظن أليكسي أنك تلومه وتكرهه .

فتح عينيه بحدة ، وسألها هامساً : «ماذا تقصدين؟» .

ـ أعني أن عقدة الذنب تتآكل قلب الولد المسكين كلما وقعت عينه عليك .

ـ الذنب؟ لكن لماذا بحق الله؟

ردت بصوت هادىء ، وكأنها تحدث نفسها :

ـ إنه يرى أنك غير سعيد . . ويشعر بأنه عامل مشارك بتعاستك . . يحس بالخجل ، ولا يعرف كيف يصلح الأمور . . لذلك يحاول الابتعاد عنك .

تغيرت أسارير فرانكو ، وقال من بين أسنانه :

ـ اللعنة على بيدرو الذي كان دوماً عديم المسؤولية . . لكن لماذا بحق الله أخبر الصبي . .

تذكرت ما أحست به عندما سمعت تفاخر بيدرو بما أنجزه . . فأمسكت لسانها .

تابع فرانكو متجهماً : «عليَّ وعلى اليكسي التحدث» .

قالت بطريقة لا إرادية «لا تخفه» .

نظر إليها بازدراء ، ورفض أن يقول شيئاً ثم هز جواده المتردد الذي تحرك عائداً إلى «الكونيتا» .

لكن ، حين شاهدتهما مرة أخرى ، أدركت أنه لم يكن لمخاوفها أساس . . فقد كانا يسيران معاً على حافة الجرف المؤدي إلى المكان الذي يضع فيه فرانكو مراكبه . . وكانا يتحدثان بصمت . فيما كانت تتقدم إليهما سمعت اليكسي يقول : «وكنت على وشك أن أصبح جيداً» .

سأله فرانكو :

ـ بتقدير من؟ بتقديرك أم تقدير معلمتك؟

ـ المعلمة ، مع ذلك أرادت أن أستمر في الدروس . .

ضحك فرانكو :

ـ يا لمكرك! حسناً! إذا برهنت لي أنك كفؤ وأنك لن تغرق نفسك دفعت لتأمين المزيد من الدروس لك ، هذا إذا نجحت في دراستك .

ابتسم اليكسي له ، وبرقت عيناه فحبست غريتا أنفاسها . إنها المرة الأولى التي تراه ينظر فيها إلى وجه فرانكو .

ـ هذه رشوة . . ومن غير المفترض رشوة الأولاد ليعملوا .

بدا فرانكو متباغتاً ثم قال : «من يقول هذا؟» .

رد اليكسي وكأنه محترف : «طبيب الأولاد النفسي» .

وابتسم ابتسامة أخرى ، فبدا شبيهاً بعمه فقال فرانكو :

ـ أعتقد أنني سأعرّفك إلى «ميكافيلي» .

ـ ومن هو؟ خبير غطس؟

ـ إنه كاتب إيطالي من القرن السادس عشر ، عنده أشياء مشتركة معك .

راح يتلاعب بشعر الصبي بحركة غريبة خجول أظهرت أنه لم يفعل هذا من قبل . ولكن اليكسي تقبلها بمرح وقال : «آه المزيد من الدروس» .

ـ تعال إلى مكتبتي بعد العشاء وسنبدأ معاً .

ـ نحن؟

ضحك فرانكو له :

ـ إن لم أحاول إنعاش ذاكرتي سبقتني وتقدمت علي . وعندئذ لن أعود سيد المنزل ولأنني أرفض المجازفة . . سنقرأ معاً .

بدا على ابن أخيه الدهشة والرضى معاً ، ووافق إنما على مضض . .

في تلك اللحظة تقدمت غريتا إليهما بدون أن تشير إلى التغيير الذي طرأ

على علاقتهما.

كانت سعادة كبرى لها أن ترى فرانكو سعيداً برفقة اليكسي وهذه السعادة ازدادت في الأسابيع التالية وخففت من توتر البارون بعض الشيء.. كانت تعتقد أنه يجهد نفسه بالعمل، لكنها حين قالت له هذا، تلقت رداً قاسياً كاد يؤدي إلى جدال.. لكن عندما وصلت البارونة من لندن، ذكرت الشيء نفسه فنظر إليهما بنفاذ صبر:

ـ لست متعباً أو مريضاً كما أني لا أعمل جاهداً.. والواقع أنني أفكر في إقامة احتفال بمناسبة زواجنا. ستكون حفلة راقصة تقام هنا في «الكونيتا» وسندعو إليها الجيران وبعض الأصدقاء من الانكليز وسنطلب منهم ارتداء ثياب فولكلورية.

وتركهما بسرعة قاصداً مكتبته. تنهدت البارونة وعبست في وجه غريتا.. ولكن غريتا لم تشعر بالمرح.. فقد سمعت في هذا الصوت المتوتر صدى شيء أعمق وأمر كئيب. إن فرانكو يفتقر إلى الحب الحقيقي، وهذا جعلها تشعر بالألم لأنها تعرف جيداً هذا الشعور لذا ليس من الانصاف مناكدته ليبدو محرجاً محطم الفؤاد.

نهرت نفسها فجأة... أتعرف ما هو هذا الشعور؟ ما هذا؟ فهي لم تحبّ قط فما حدث هنا في هذا المنزل بالذات، ومع هذا الرجل، منعها من الوقوع في الحب، وجعلها تغلف قلبها بالثلج عشر سنوات لم يقترب خلالها أحد منها.

ما دامت لم تسمح لأحد بالاقتراب منها فلماذا تجلس هنا تكبح الدموع لمجرد التفكير في أن فرانكو يتألم؟

كان الرد واضحاً، وصاعقاً فربما هو يحب تريشا إنما ذلك لن يؤثر في شيء. فغريتا تحبه، ولربما أحبته طوال السنوات العشر دون أن تدري.

لهذا السبب أحست بأنها لن تستطيع تجنبه حين التقيا ثانية، ولهذا

السبب كانت مستعدة للتخلي عن حياتها والزواج به. إنها تحبه منذ زمن طويل، وهذا ما ذكرها برغبتها العارمة التي كادت تدفعها مراراً إلى أن تحتضنه. ها هي الآن تفهم حقيقة شعورها هذا. إنه الحب والحاجة إلى تقديم العون ممن تحب. لا شك أنها كانت مجنونة لأنها لم تدرك هذا من قبل.

عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير عجزت حتى عن رد ابتسامة البارونة المتآمرة ولكنها، وتحت ضغط نظرتها الممعنة، ردت بابتسامة لا معنى لها، وخرجت بسرعة.

سارت في الحديقة الباردة الجو مشتعلة الوجنتين.. هل عرف فرانكو ما بها؟ هل هذا ما جعله يشمئز منها؟ أم تراه غير عابىء البتة بسبب ولعه الشديد بتريشا؟

فهمت الآن لماذا لم تكن تطيق أن يعاشرها معاشرة الأزواج.. لم يكن للأمر علاقة بحساسيتها المفرطة، أو بخوفها من التورط العاطفي والجسدي... بل كانت كلما لمسها تحس بأنها تريد منه أكثر مما يستطيع أن يعطيها.

أوه.. يا الله.. ما هذا التشوش؟ مسكين فرانكو.. وما أشد غباءها لأنها لم تدرك قبل الآن حقيقة مشاعرها.. كيف لها أن تكون على هذه الدرجة من العمى والغباء؟ ثمة الآن أمر واحد تستطيع القيام به هو ألا تجعله يشعر بأن حبها له عبء عليه. لقد تزوجها حتى تدعمه وتشاركه المسؤولية لذا قد لا يرغب في تحمل عبء حب فتاة غبية، لم يكن لديها الذكاء الكافي لتفهم شعورها.

لكن قرارها الجديد صَعُب تطبيقه مع أنها بذلت ما بوسعها.. غير أنها كانت تحس بالألم لأنها تفقد بذلك رفقة فرانكو فهي تتجنبه لأنها مضطرة إلى كبح لسانها، وإلى كبح مشاعرها وهذا أسوأ بكثير.

تساءلت عما إذا كان قد لاحظ هذا. كانت أحياناً توقن أنه لاحظ

حبها وذلك يحدث غالباً عندما تستقر عيناه بسخرية وهي تختلق الأعذار لعدم الخروج معه، أحياناً أخرى كان يقبل عذرها بدون أن يسأل وكانت دوماً تتذرع بالتحضير للحفلة الراقصة.

وفي الواقع أن الحفلة الراقصة كانت تتطلب منها وقتاً فأمامها عمل كثير، عليها تحضيره كإعداد لائحة بأسماء الأطعمة ولائحة بأسماء من ستدعوهم وأخرى بالغرفة التي يجب أن تستخدم.. وفي غمرة انشغالها كادت تنسى أن تحضّر لنفسها زياً.. لأن فرانكو أصرّ على تنفيذ ما يريد، وعليه ستكون الحفلة تنكرية.

قالت البارونة عندما اكتشفت أن غريتا نسيت تحضير زي لها.

ـ الأمر سهل.. ثمة أغراض كثيرة في الخزائن.. فأنا أحتفظ بكل شيء وهذا ما كانت تفعله حماتي.. أملت دائماً أن أنجب ابنة قد تتمتع بارتداء ملابسي وها الآن قد بات عندي ابنة.

وكان إن صعدتا إلى الغرف الفارغة في الجناح الشرقي حيث أمضتا ساعات مسلية تنقبان بين الثياب الحريرية في خزائنها القديمة. كان واضحاً لغريتا أن البارونة تفتش عن فستان محدد.. وأخيراً وجدته، وشهقت غريتا لمرآه.

للوهلة الأولى بدا فستاناً غريباً، فهو بدون أكمام تنورته عبارة عن منديل كبير معقود عند الخصر... فشهقت غريتا: «إنه غير محتشم».

ردت البارونة بسعادة: «أجل وفي غاية الروعة».

ـ أجل.. إنه خلاّب.

حملته البارونة، فرأت غريتا أنه مزيّن برسوم يدوية وأن خيوطاً دقيقة تشبه خيوط العنكبوت تغلفه.

وما أن فردت التنورة حتى تحول الفستان إلى شبكة من التخريم الفاتن المتقن. فصاحت غريتا بذهول:

ـ إنه ساحر! وهو لا شك يساوي ثروة!

هزت البارونة رأسها إشارة الموافقة:

ـ اشتراه لي كارلوس من باريس.. كان المفضل لديه. وسأشعر بسعادة كبيرة إن ارتديته.

وهكذا وافقت غريتا ولكن في الواقع كان لديها أشياء أخرى تشغل بالها غير اختيار ثوب الرقص فالبريد الذي حمل إليها قبول الدعوات حمل إليها رسالة من غودفري يقول فيها إنه مسرور لأن ابنة أخيه تزوجت من رجل ثري، وهذا سيشكل متاعب لها طبعاً لأنه سيأتي بحثاً عنها عما قريب.

تساءلت عما إذا كان يجب أن تظهر الرسالة لفرانكو أم لا. لقد وعدها بالحماية من نوايا عمها السيئة، وصدقته.. ولكنه الآن مشغول عنها وهي تخاف الاقتراب منه خشية أن تفضحها مشاعرها، فكان إن أخفت الرسالة في درجها.

ثم وفي الصباح الذي سبق أمسية الحفلة قامت بنزهة قرب قمة الجرف الصخري المحاذي للشاطىء وهناك ظهر غودفري فتوقفت كالميت وغار قلبها لرؤية وجهه المسرور. قال يحييها:

ـ مرحباً عزيزتي.. عرفت أنك ستمرين بهذا الطريق.. كنت أراقبك.

وأشار إلى المنظار المعلق في عنقه.

ـ أتتجسس عليّ غودفري؟ ماذا تريد؟

تظاهر بالألم: «وهل يمكن أن أتجسس على صغيرتي؟ أريد أن أتأكد من سعادتك مع ذلك النذل المشطوب الوجه».

تمتمت بغيظ وحنق:

ـ كن حذراً غودفري! ظننتك تراه تبع مال لا ينضب.

تمكن غودفري من التظاهر بمظهر الضعيف المسكين.

ـ لا أحب أن أسمعك تتفوهين بهذه الكلمات.. لم تكوني مرتزقة

في طفولتك كوالدك المسكين الذي لم يكن يرضى عن أحد حتى ولو دفع لحمه ودمه.

أدارت وجهها باحتقار:

- يا إلهي.. ما هذه العائلة التي أنحدر منها!

دار حولها لينظر إلى وجهها.

- حسناً.. فكرت في الأمر أنا كذلك حين سمعت خبر زواجك، وقلت لنفسي: لا يمكنه أن يعرف كما أنه لا يمكن لصغيرتي غريتا أن تخبره. أما بشأني فالأمر بسيط، فلن أقول له شيئاً لو..

صمت بدون أن يتم الجملة، فرسالته بالغة بينة.. نظرت غريتا إليه بقلق: «أتبتزني غودفري؟».

لم يحاول الإنكار، لكنه قال بابتسامة خبيثة:

- ألا تقدمين بعض المساعدة لعمك العجوز؟

فكرت في فرانكو، في كبريائه وصدقه وتصورت الاحتقار الذي سيبديه حينما يعلم حقيقة والدها أيضاً: ولكنها لن تذل زوجها باتصالها بهذا الرجل.

ارتدت على عقبيها لا تلوي على شيء فراح يركض وراءها والذهول باد على ملامحه: «غريتا».

صاحت به، وهي تركض على المرج.

- افعل ما بدا لك غودفري.. لقد قلت لك في لقائنا الأخير إنني سأعطيك المال للمرة الأخيرة وكان عليك أن تصدقني.

- لكن...

التفتت إليه بشراسة:

- لن أسمح لك باستنزاف زوجي كما استنزفتني طوال هذه السنوات.. اذهب من هنا!

رد غودفري بارتباك مضحك صادق:

- لكنه قادر على الدفع.

- ربما.. أما أنا فأرفض.. إن اقتربت منا مرة أخرى أنا سأؤذيك وأقسم إن حاول أن يدفع لك أن أهجره.

تراجع: «أنت مجنونة؟».

وهذا أمر صحيح.. إنها مجنونة بحبها، ووضعها هذا لا يتحسن أبداً.

لم يعد هناك مواضيع يتكلم فيها فرانكو، كانت تريشا قادمة إلى الحفلة الراقصة، وهذا موضوع لم يعلق عليه إطلاقاً. لم تستطع أن تعرف ما إذا كان بائساً أم أن مجرد رؤية الفتاة الإيطالية يستحق الألم.

حاولت أن تسأل ولكنها فشلت، فقد رد عليها:

- يستحق؟ من يدري؟ هذا يعتمد على مزاجك الخاص كما أعتقد.. لا بد أنك أحببت يوماً، فهل ندمت؟

فكرت في تلك اللحظات القصيرة بين ذراعيه وشعرت بمرارة نبذه لها. ولكن ألا تفضّل عدم الشعور بهذه المشاعر المعذبة؟

قالت بتأكيد مطلق: «لا، الأمر يستحق مهما كانت التكلفة».

وضع يده على عينيه: «سأقول على الأرجح الشيء نفسه أحياناً».

لم تجرؤ على طرح المزيد من الأسئلة لأنها غير واثقة من قدرتها على تحمل الرد. سألته عما سيرتدي في الحفلة، فقال:

- أوه.. لدي الزي الذي أريد.. إنه عندي منذ زمن.. لهذا رغبت في حفلة تنكرية.

- وما هو؟

- إحزري.

- قرصان؟

- لست إنكليزياً تقليدياً.

حركت أنفها ساخرة: «فارس، لويس الرابع عشر، فومانشو؟».

هز رأسه نفياً. . فتابعت: «أستسلم أخبرني».

ـ لا. . انتظري لتعرفي ولكن توقعي الحيرة.

ضحكت غريتا ووعدته بأن تحيّره أكثر مما سيحيرها. لكنها تعجبت. . لم يكن فرانكو متباهياً قط، وسرّيته بشأن ما سيرتدي صدمتها.

حين نزل السلالم ليلة الحفلة، فهمت سبب تكتمه. . فهو لم يكن يرتدي زياً تنكرياً بل ارتدى سروالاً رمادياً ضيقاً، وسترة طويلة الأكمام رمادية مزررة من الخصر حتى العنق.

سألته غريتا بحيرة: «شبح؟».

أخرج القناع من وراء ظهره فإذا هو وجه رمادي كبير مثلث الزوايا عليه ابتسامة غبية وفيه عينان واسعتان صفراوان. . إنه وجه قط. . وضعه على وجهه ومد يده بافتخار إلى شاربه فضحكت غريتا حتى أحست بألم في خاصرتها.

سألت: «أليس لك ذنب؟».

انتزع القناع وضحك: «بلى، وسيثبته اليكسي».

وصل اليكسي وروح النكتة تستحوذ عليه. . كان يرتدي بذلة قفز مخططة لها مخالب من فرو. فأدركت أن أي أمل بأن تقنعه بالنوم أمام إغراء الحفلة قد تلاشى. . فالعم وابن الأخ سينطلقان للصيد معاً. .

قال غريتا:

ـ أتمنى على الله ألا يحضر أحد من الضيوف في زي فأر.

وضعت قناعها المخملي، الذي بان على وجهها وكأنه قناع فينيسي، وكان خفيفاً إلى درجة أنها نسيت أنها تضعه بعد ساعة، ونظر إليها فرانكو قبل أن يضع قناعه ثانية:

ـ تبدين جميلة. . أتساءل ما إذا كانت القطط تلاحق العناكب؟

خفق قلبها بشره، فحاولت تهدئته، وقالت بحزم:

ـ أنا لست عنكبوتاً. . بل فخ عنكبوت، وهذا أكثر رومانسية.

انحنى لها ساخراً: «أعتذر أيتها البارونة».

حينما وصل الضيوف اختفى هو واليكسي. كان ادغار وجانيت سيبقيان في المنزل طبعاً. . جانيت ترتدي ثياب سندريلا المزرية قبل أن تتحول على يد الساحرة، والسبب أنه زي يمنحها البرودة في ليلة حارة كهذه. أما ادغار فارتدى زي القرصان. وكان هناك العديد من القراصنة، لأنه زي سهل التحضير. ولكن ادغار راح يجوب القاعة متحدياً القراصنة الآخرين. . وأخذ اليكسي، وهو هائم في سمائه السابعة، يركض بينه وبين عمه.

كان فرانكو يمرح كثيراً في تسلله تحت الموائد والقفز من بين أغطية الطاولات لإجفال ضيوفه. . أما أليكسي فكان يقوم بما هو أفضل من هذا بملاحقته رباط حذاء نبيل فرنسي ربطه برباط حذاء شريكته وبقائمة إحدى الطاولات. . وكان من حسن الحظ أن الجميع يتمتعون بحيث لم يعد هناك مجال للتذمر. . وصلت تريشا مع جماعة من أهل الجوار مرتدية زي «هيلين طروادة» وهو زي آخر يجلب البرودة. . شعرها مثبت على قمة رأسها يتسلل منه إلى العنق بضع خصلات. كانت بكل تأكيد تبدو أسعد من المرة الأخيرة التي رأتها فيها وهذا أثار في نفس غريتا بعض الألم.

قبلت تريشا غريتا قائلة: «جميلة».

في الشرفة التي تشرف على الحديقة حيث الحفلة، كانت فرقة موسيقية تعزف لحن السامبا، فأكملت:

ـ عمل رائع. . وما هذا الفستان الفاتن! أهو غلو في التبذير من فرانكو؟

ابتسمت غريتا:

ـ فرانكو دفع لي الإطراء القانوني. . لكنه يتمتع بنفسه أكثر من أن يزعج نفسه بشيء آخر، وظنني العنكبوت. .

ضحكت تريشا، من بعيد كان فرانكو يدس رأسه في ظهر صورة عن الامبراطورة جوزفين، وقالت:

- أوه.. إنه في أحلى مزاج.. أليس كذلك؟ فليساعدنا الله جميعاً.. لكنني أعتقد أنك قادرة على إيقافه عند حده لو حاول القيام بحركات بهلوانية في الفناء.

فوجئت غريتا: «أممكن هذا؟».

- فعلها سابقاً، فحين يركب الشيطان رأسه يخرج عن طوره. ولكنك بالطبع ستردعينه عن اللهو كونه الآن رجلاً متزوجاً رزيناً.

نظرت غريتا إلى الرجل المتزوج الرزين وهو يدور حول الامبراطورة جوزفين التي يحثها نحو باحة الرقص.. وقالت بصوت أجوف: «أجل».

من حسن الحظ أنها كانت مشغولة باستقبال الضيوف وتحيتهم، وبالعناية بالعجائز من السيدات والاهتمام بالبارونة لئلا تجهد نفسها وهذا ما أنساها قلق أن ينقلب فرانكو إلى بهلوان. وكانت خلال الساعة التالية مضيفة ممتازة وكان أن أمضت وقتها تراقص هذا، وتتحدث مع ذاك وتدور بين الحضور وترقص ثانية.. وكانت الموسيقى قوية النغم، وكأنها وقع وثني ملح وكان هذا الوقع يجرها نحو الحلبة مرات ومرات.

قال لها قرصان يلهث، ما بين رقصتين:

- أنت رائعة.. أفهم الآن لماذا تزوجك فرانكو.

ردت بعذوبة: «شكراً لك».

وأكد لها القرصان الانكليزي:

- إنه أفضل راقص في الحلبة وهذا ما كان عليه منذ طفولتنا.

تركته يقودها إلى حلبة الرقص ثانية وهي تقول:

- إنه الوحيد الذي يرقص على الأربعة.

لكن فرانكو كان الآن مستقيماً على قدميه، يرقص ببراعة ومهارة. كان يبدو عظيماً بالطبع وكانت كلما نظرت إليه تحس بشيء يقبض على خناقها حتى أصبحت تخاف من هذا الإحساس كما لم تخف شيئاً من قبل.. فلو شعر فرانكو بهذا...

كانت البذلة غير العادية تناسبه.. فهو بين جميع القراصنة والمقنعين بدا هادئاً وخطيراً. لقد جعل السروال الرمادي الضيق ساقيه أكثر رشاقة من ساقي أي إنسان. فعندما كان يرقص كان يحيط به جو رشاقة برية عنيفة وكأنها للحيوان الذي اختار زيّه. وكان القناع، الساخر المتكبر، قطعة خفيفة رائعة.

ملست غريتا تنورتها الشاحبة بأصابع مرتجفة. كانت تعرف أنها تبدو جميلة، ربما أجمل مما كانت طوال حياتها. ومع أن فرانكو لم يلاحظ هذا إلا أن الضيوف أطروا مظهرها.. وعلى وجه واحد على الأقل ممن شاركوها الرقص لاحظت نظرة كانت أبعد بكثير من الإعجاب الذي أظهره بالكلمات.

لكن كل هذا لم يشكل فرقاً، فقد بقيت تلك الفتاة الحزينة ابنة الثامنة عشرة ربيعاً، العالقة في براثن قاسية تقاوم ما تجهله شاعرة بالهزيمة حتى قبل أن تدرك أنها دخلت معركة.. عندما راقبته وهو يضع يديه على ظهر أسمر عاري لمن اتخذت زي كليوباترا أحست بفمها يجف.. منذ عشر سنوات ظنت أن جفاف فمها عائد للخوف، ولكنها الآن بات تفهم المسألة.

أصبح فجأة الجو خانقاً.. فقد سكن الليل وعبق بأريج الأزهار وزادت المصابيح الملونة الملقية أنواراً غير حقيقية فوق الراقصين من حدة الحرارة.. وفي هذا الجو الخانق، تخلص العديد من الضيوف من أقنعتهم. ومدت غريتا يدها إلى قناعها، مترددة في التخلي عن تنكرها. لا.. من الأفضل أن يبقى الستار المخملي حيث هو.

لم ينزع فرانكو أيضاً قناعه حتى أثناء الرقص، كان يُبقي تلك الابتسامة العريضة التي لا تتغير وكأنها قناع حقيقي وقد يكون وجهه مخبئاً أما جسده فلم يكن قط بليغاً في التعبير هكذا. راقبته يدور مع كليوباترا وكأنه حيوان مفترس متوتر توتراً ملموساً. كانت يداه تمتدان كالثعبان وتكادان لا تلمسان بشرة الفتاة، وكانتا تديرانها بانحناءة شرسة، ثم تمسكان بها، لترمياها إلى الخلف قبل أن تعود مستقيمة.. ابتلعت غريتا ريقها.

استدار قناع القط إليها.. فارتدت إلى الوراء مذعورة وابتعدت أكثر تحت الظلال في أطراف باحة الرقص فلاحت تنورتها التي انعكست منها الألوان القرمزية والخضراء وكأنها لهب تحت الأضواء.

بين الراقصين تسمّر جسد القط الافعواني.. رفعت غريتا عينيها على مضض وقد باتت من حيث تقف لا ترى فرانكو بوضوح بسبب وجود عشرات الراقصين والمتسامرين. ولكن عيونهما كانت متشابكة.. وأحست ببشرتها تتقلص وكأنه لمسها بحد خنجر.

أوه.. يا الله.. سيعرف الآن.. سيعرف بلا أدنى شك. لا طريق أمامها لإخفاء مشاعرها في وقفتها هذه حيث أفكارها مشتتة وجسدها متسمّر.

ارتد فرانكو عن كليوباترة وكأن لا وجود لها. وشق طريقه بين الحشد الصاخب دون أن يشيح نظرته عن عيني غريتا. بدا أنه لا يلاحظ أحداً من الموجودين. كان يتحرك بخفة القط، فخطواته طويلة رشيقة، وخفته متقنة.. ورغم هذا الحشد الكبير وهذا الرقص العشوائي، لم تلامس كتفاه راقصاً أو راقصة.. حين وقف أخيراً أمامها، لم يكن قد لاحظ أي ضيف مروره به.

ران بينهما صمت، صمت ملموس تقريباً وهو يختلف كل الاختلاف عن جلبة الحفلة. وأحست غريتا بأنها بعيدة عن الواقع..

وكأنها معلقة في زجاجة منذ زمن حتى نسيت كيف تتحرك أو فيما تفكر.. نسيت كل شيء إلا نظرات هاتين العينين الخضراوين اللتين تكاد لا تراهما.

رفع فرانكو يده، وانتزع قناعه.

***

٩ ـ وكان الصمت..

سحبت غريتا نفساً بجهد، فأحنى فرانكو رأسه وكأنها تكلمت واضطر إلى الانحناء ليلتقط كلماتها. كانت وراءه الحفلة الصاخبة فرأت من وراء كتفه الضيوف يتابعون رقصهم وتسامرهم غير واعين بالزاوية الهادئة التي يقف فيها مضيفاهما حيث الليل يدثرهما بدثار أخفاهما عن العيون.

قال فرانكو بصوت منخفض، وكأنه رجاء: «تعالي معي».

ناولته يدها وهي تشعر بالدهشة فاحتوى هذا اليد بين كلتا يديه رامياً قناع القط بعيداً بنفاذ صبر، لينظر بإمعان إلى وجهها.

ثم استدار وراح يجرها خلفه، بعيداً عن الجمع، وبعيداً عن الموسيقى، والطعام، والأضواء، إلى قلب ظلمة الحديقة العطرة، حتى بان المنزل خلفهما أشبه بمنارة من أضواء.

أخيراً تلاشى كل شيء حتى الصمت إذ اتجه فرانكو إلى الشاطىء، وعلى الطريق تعثرت غريتا لكن هذا لم يؤثر في سرعة خطواته.

أخيراً بلغ مرامه وكان هذا المرام بوابة صغيرة تفضي من أسفل الحديقة إلى شاطئهما الخاص، وإلى ضفاف الجون الصغير حيث يذهب اليكسي لصيد السمك.. هناك توقف مستنداً إلى البوابة القديمة ممسكاً غريتا بعيداً عنه: «أخبريني».

لم يعدُ كلامه أن يكون همساً، وهمست هي أيضاً: «نعم».

قال بصعوبة: «هل ترافقينني؟».

لم تدّع عدم الفهم، بل تقدمت خطوة بحيث التصقت به، وبدون تردد احتوتها ذراعاه فارتجفت ولكن فرانكو أسرع يضمها إليه، فلامس خده شعرها وتلفظ فمه اسمها فإذا صوته مرتجف.

الأمر ميؤوس منه.. فثمة حب عظيم، ومشاعر كبيرة وضغوط كثيرة. ليت هذا الليل يضمهما في كنفه إلى الأبد لم يكن لذلك فرق عندها، فهي عاجزة عن المقاومة.

عقدت يديها بحنان ممسكة بوجهه.. فأحست تحت أطراف أصابعها بخشونة الجرح، وبتوتره ولكنها وقفت على أطراف أصابع قدميها، ومررت شفتيها على طول الجرح القاسي.

لم يدفعها عنه هذه المرة.

في هذه اللحظات المجنونة فقدت غريتا الإحساس بمن هي أو أين هي. وحين رفع رأسه، أدهشها أن ترى أنها واقفة مستقيمة وعلى أرض جافة صلبة.. ذكرت له ذلك فضحك بخشونة. وقال بصوت حبيب: «ليس لوقت طويل».

مد يده ليفتح البوابة.. ودون أن يرفع عينيه عنها، جرّها باتجاه الشاطىء.. فهناك كما تعرف، مركب صغير حرّم فرانكو على اليكسي الاقتراب منه. فتساءلت بحدة عما إذا كان يصحب نساءه جميعاً إليه.

سألها بسرعة: «ما بك؟».

هزت رأسها مصدومة لأنها رأت أن أفكارها قد اتصلت بأفكاره. قالت، مع أن كلاهما يعرف أنها لم تقل الحقيقة:

ـ لقد تعثرت.

لكن الأمر لم يكن مهماً فهي تعرف كل شيء عن النساء الأخريات.. حتى ولو لم تكن من خلال الشائعات فهي قادرة على التكهن.. فكيف له غير هذا وهو بلمسة واحدة يحولها إلى مجنونة؟

كانت الأعشاب النامية تكاد تخفي المركب. . فترددت غريتا، ونظرت إلى اللوح الخشبي على جانب المركب بقلق. حملها فرانكو بدون أقل تردد يضمها إلى قلبه وصدره ضاحكاً. حسناً، إنها لا تظن أبداً أنهما بحاجة إلى أي نوع من تخاطر الأفكار ليعرف ما هي مشاعرها.

كان المركب مظلماً، ولسبب ما لم يشعل فرانكو مصباحاً، فتقدما متشابكي الأيدي نحو القمرة، يضحكان بأنفاس متقطعة كطفلين في نزهة محرّمة.

كانت غريتا طوال الوقت تحس بحرارة جسده وبقوته النابعة من هذه اليد المتوترة وكانت تشعر بالحماية الحديدية التي توفرها ذراعه الملقاة حول كتفيها. ورغم جميع العوائق التي تمر بهما حرص على ألا تؤذي نفسها.

كانت القمرة صغيرة. . فاضطرا للوقوف متلاصقين. . وأحست غريتا برعشة حينما لامس الهواء البارد بشرتها ولكنها سارعت إلى دفء ذراعيه. وجلسا على المقعد الخشبي المعلق متعانقين.

تلاشت آخر فلول الخوف فاستجابت له بدون أقل تحفظ. . أغمضت عينيها وتعلقت به، تسمع نفسها تهمس باسمه وتسمعه يهمس باسمها.

أخيراً غرقا في النوم. في وقت لاحق شعرت به يتحرك ورأته يدثرها بالغطاء. وكانت هي نصف نائمة فدفنت نفسها بين ذراعيه متمتمة وعادت تغوص في أحلام عذبة شعرت فيها أن هناك من يعتني بها عناية لم تشهد لها مثيلاً.

في الصباح استيقظت ببطء فشعرت بادئاً ذي بدء بتشنج أطرافها ثم لما تمطت وجدت أن جسدها كله يؤلمها ولكنه ألم ممتع. ثم اشتمت رائحة غريبة، وهي ليست رائحة اللافندر التي تتصاعد عادة من أغطية سريرها ووسادتها.

تأوهت واضطجعت على ظهرها، تفتح عيناً واحدة. كان الصباح مشرقاً ولكن لم يكن هناك النور المبهر الذي تتوقعه عادة حين تستيقظ.

حالما صحت جيداً فتحت عينيها معاً وجلست، تنظر إلى ما حولها بخوف فعادت إليها ذكرى ما حدث ليل أمس. أوه. . يا إلهي. . ماذا فعلت؟

كانت وحيدة ولكن البساط الأفغاني والوسائد الخشنة أكدت لها أنها لم تنم وحدها هنا. واحمرّ وجهها.

سمعت أصواتاً خارج القمرة نعم هي هنا وحدها لكن من الواضح أن فرانكو لم يترك المركب بعد فسيطر عليها الذعر ثم ما أن انفتح الباب الخشبي حتى شعرت بخناقها يعتصر.

وقف هناك ينظر إلى الوراء، كان ما يزال مرتدياً سروال الأمس الضيق، وكان على شعره قطرات ماء. وأحست غريتا بأعصابها تتكور وبإحساس عميق بالشوق إليه وكادت تموت خجلاً ولكن حالما التفت إليها تمالكت نفسها.

قالت بصوت هادىء ملؤه عدم الاكتراث:

ـ أرى أنك تخلصت من ذلك الذنب السخيف.

بدا مصعوقاً، ولكنه ابتسم وجلس على حافة المقعد:

ـ لقد وقع ضحية أحد الفرسان ليلة أمس.

كان مبتهجاً بشكل يثير الاشمئزاز. . فمن الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يستيقظ فيها بعد حفلة راقصة وهو بين ذراعي سيدة مشعثة الشعر. وبدا مسترخياً مسروراً من نفسه. . سألته: «كم الساعة؟».

ارتفع حاجباه: «لماذا؟».

ـ لدينا ضيوف.

ضحك: «إنهم دون شك في أسرتهم. فلم ينم أي منهم باكراً مثلنا

تماماً».

كيف يجرؤ على الجلوس ضاحكاً منها؟ كيف يجرؤ؟ أحست بالدماء تحرق بشرتها فكادت تكرهه.

- يبدو أنك تعانين من وخز ضمير بعد الصباح الأول لا تقلقي.

أشاحت بنظرها عنه متمنية لو يخف احمرارها.. وكانت أناملها مطبقة بشدة على البساط الأفغاني.

- كم الساعة؟

نظر إليها باستغراب، ثم هز كتفيه، وتقدم إلى النافذة ليحني رأسه وينظر إلى الخارج، فوقعت أشعة الشمس على شعره الذي أصبح كحلياً. عندها أحست برغبة مؤلمة لتلامسه.. وأغمضت عينيها.

- إنها الثامنة على ما أعتقد وهذا يعني أن أمامنا وقتاً طويلاً.

فتحت عينيها بسرعة: «وقتاً لأي غرض».

تقدم منها: «احزري».

حضنت البساط الأفغاني وقفزت إلى الخلف تلتصق بخشب الجدار: «لا».

بدت الحدة على فرانكو، ولكنه لم يتراجع فتبادر إلى ذهنها أنه يعتبر الأمر كله لعبة.. لا شك أنه فعل هذا دائماً، فهو يعرف بالضبط كيف يلمس وما يقول، وكيف يعيد الذكرى يومياً، كما يعرف كيف يرسلها ثانية إلى زوايا البستان. حسناً.. لن تنجرف معه ثانية، ليس في وضح النهار، ليس وهي تعرف أنها تحبه، وأنه لا يحبها.. ليلة أمس تهورت.. أما هذا الصباح فعليها أن تحسب ما سيكلفها هذا..

قال لها:

- إذا كنت تفكرين في إيقاظ الناس باكراً لشرب الشاي على طريقتك الانكليزية فأؤكد لك إنهم لن يشكروك أبداً.

تقدم إليها ليمرر فمه بنعومة على أطراف شعرها.. فسحبت أنفاساً

بحذر، ولم تسمح لمشاعرها المتحفزة الصارخة بأن تستجيب...

سرعان ما تراجع فرانكو: «ما الأمر؟».

هزت رأسها: «وماذا سيكون؟».

- أخبريني أنت.

- أنت تتصور هذا.

وأجبرت نفسها على الضحك، فانعقد حاجباه بعبوس شديد: «وهل أتصور حقاً؟».

ثم انتزع بحركة سريعة رشيقة البساط عنها، فحاولت التمسك به ولكنها تأخرت فنظرت إليه مذعورة حزينة حزناً غير خفي. تبادلا النظرات دون كلام ثم لم يلبث أن أعاد إليها الغطاء الصوفي الذي التقطته شاكرة، ولفته حولها أما هو فتمتم بعبارة مفادها أن الجو في المركب بارد، وهذا أمر غير صحيح.

حالما خرج نهضت غريتا من السرير.. كانت تعلم أنه لن يعود قبل أن تخرج هي فشرعت بالبحث بين الثياب المكدسة عن ثيابها، وبدت لها ثيابها في ضوء النهار هشة بشكل غريب، كانت بالفعل أشبه بخيوط العنكبوت. بدا الفستان في ضوء الصباح شفافاً تقريباً، وشحب وجهها. كيف كان يبدو ليلة أمس تحت تلك الأضواء الساطعة في الحفلة؟ كيف بدت هي؟ أبدت وكأنها على استعداد لمن يحملها إلى زاوية بعيدة عن الأنظار؟ الغانيات عادة يعرفن من مظهرهن! لم تفكر في هذا من قبل لكن ربما فكر فيه فرانكو.. ربما عندما رآها مرتدية هذا الثوب الخليع ظن أنها مستعدة لما يريد.

أغمضت عينيها، وأسندت جبينها المتألم إلى الحائط الخشبي.. إنها غلطتها، على أي حال، كانت تعلم ليل أمس، حين رمت حذرها أدراج الرياح، أن هناك ثمناً لهذا.

لم يعد أمامها سوى شيء واحد.. ستخرج وتتصرف وكأن ما

جرى لم يكن سوى نزوة عابرة.

كان يقف أمام سياج المركب، ينظر إلى خارج الجون نحو البحر الواسع جهم الوجه. أشار برأسه إلى حذائها الموضوع بترتيب جنباً إلى جنب فوق الرف الخشبي «وجدت حذاءك».

لم تدنُ من الحذاء ولم يدن هو أيضاً. لا شك أن الحذاء وقع من قدمها حين حملها بين ذراعيه ليلة أمس. حالما واتتها الذكرى، ذكرى ذراعيه وهما تطوقانها شعرت بوخز في قلبها.

قالت بصوت مزيف: «لن أنتعله قبل أن أنزل».

هز رأسه: «ولكنني لن أحملك».

المد منخفض الآن، واللوح الخشبي لا ينحدر في زاوية خطرة. فكان أن قطعته غريتا، بطريقة ما ولكنها كانت تعي طوال الوقت أن عينيه لا تفارقانها. حين وصلت سالمة على الشاطىء، لحق بها بخفة، وكانت قدماه عاريتين.

ـ حسن جداً.. إلى الفطور إذن.

حافظا أثناء المسير إلى المنزل على وقار مخيف.

وعندما وصلا إلى المنزل تناولا فطورهما في المطبخ حيث كانت لوريتا تشرف على خدمتهما، وكانت لوريتا على عكس غريتا غير منزعجة من جاذبية هذا الرجل. لكنها على أي حال لم تكن تموت شوقاً إلى رمي نفسها على هذا الصدر أو إلى تمريغ وجهها في الذقن الخشنة.

كانت وجبة الطعام بالنسبة لغريتا كالكابوس.. وكانت انفعالاتها وارتباكها تتصاعد مع كل دقيقة. في النهاية باتت عاجزة عن البقاء دون حراك، فراحت ترد على ملاحظاتهما المرحة، بكلمات وحيدة حتى بلغت مرحلة عجزت فيها عن الاحتمال. فوقفت متمتمة:

ـ أشعر بالضيق من العرق. أعتقد أن الاستحمام سيفيدني.

ضحك فرانكو ضحكة شريرة ذات مغزى، تجاهلتها لوريتا.. أما غريتا فابتسمت له من غير تركيز وغادرت.

كان فرانكو على حق فما زال معظم الضيوف غارقين في أسرتهم. ولم يعمدوا للنزول إلى الطابق الأرضي حتى الظهيرة. وأبقت لوريتا الطعام جاهزاً في المطبخ، وهناك راح كل ضيف يتناوله منفرداً وفي المساء أقيمت حفلة شواء على الشاطىء.

تمكنت غريتا من إغراق نفسها بدور المضيفة وتجنبت فرانكو الذي لم يسعَ إليها.

لكن أمر ادغار كان مختلفاً.. فقد جلس إلى جانبها على الشاطىء وهي تقلّب النقانق واللحم فوق النار الكبيرة، وكان فرانكو يفتح زجاجات المرطبات وجوليو يدور بالأكواب.. قال ادغار:

ـ ما أروع رؤيتك... رؤيتكما معاً. لم أفكر قط بأن فرانكو قد يقدم على ذلك.

ـ يقدم على ماذا؟ على الزواج أم على الزواج بي؟

ـ على الزواج بك طبعاً. ظننا أنه متفق مع تريشا.. وكنا نعرف أنه مضطر للزواج بعد موت بيدرو.

إذن.. حتى ادغار يعرف أن تريشا هي حب فرانكو الأول! حسناً.. لم تكن الخطوبة سراً ولا حاجة لفرانكو إلى إخفاء مشاعره. ولكن ما دامت تعرف هذا فلماذا آلمها سماع ما قاله؟ تحوّل التوعك الخفيف الذي استولى على جسدها طوال اليوم إلى ألم..

تابع ادغار دون أن يعي ما يخالجها: «ما أروع أن نراه سعيداً هكذا».

ـ كنت تعتقد إنه لن يكون سعيداً؟ أليس كذلك؟

رد بدون أن يُظهر أقل انزعاج من سؤالها الخبيث: «لا».

سرعان ما شعرت بالخجل من نفسها ولكنها رأته يلتقط قطعة

مقانق ويقول بصوت محرج:

- ما مرَّ به جعله كثير الشك غير قادر على الثقة بالناس، حتى بمن يجب الوثوق بهم. فهل تفهمين قصدي؟

تريشا مرة أخرى. ردت بصوت جاف: «أفهم ما تعني».

ابتسم ادغار لها: «عظيم، إذن من الرائع رؤيته متوقفاً عن...».

صمت لأن ضيفاً آخر تقدم يطلب الطعام الذي تحضره غريتا.

توقف عن ماذا؟ عن ملاحقة قوس قزح؟ فهل أبعد تريشا عن تفكيره واكتفى بزوجته؟ بدت لها فكرة اكتفائه بزوجته لا تطاق أكثر من غيرها من الأفكار. في الأيام الثلاثة التالية لم يجدا الوقت الكافي للكلام لأن بعض الضيوف مكثوا عندهم ولأنها أمضت الوقت في تنظيف المنزل ولكن رغم الود الذي كانا يعاملان بعضهما بعضاً به ظلت الفكرة محبطة. وأصبحت هوساً، حتى وهي تكنس السجاد الصيني، أو تلمّع خشب الأرض، الأمر الذي اعترضت عليه لوريتا بقوة، ولكن ذلك كله لم يبعدها عن التفكير، فحالما تعود إلى غرفتها الموحشة في وقت متأخر كانت تعاودها الأفكار وتسخر منها كالأشباح المزعجة.

في النهاية، كان فرانكو هو من فرض المواجهة.

نزلت صباح يوم فوجدته قد خرج وكانت لوريتا هي المسرعة في إعلامها بأنه ذهب على متن جواده إلى منزل تريشا، تاركاً رسالة تقول إن عليها اللحاق به إن استيقظت باكراً. صرّت غريتا على أسنانها وشكرت لوريتا. وتجاهلت الوقت المبكر الذي أشارت إليه ساعة المطبخ، وبدأت بتلميع المرايا في غرفة الاستقبال الرئيسية... عملت بشراسة طوال الصباح حتى سمعت أصواتاً وصرير أبواب خلفها.

دخل فرانكو بدون أن يتفوه بكلمة.. كان يبدو متعباً مغبراً متجهم الوجه وكان يحيط به جو من التصميم ملأ قلبها بنذير شر، خاصة عندما

رأنه يقفل الأبواب بحذر.

قال بهدوء: «غريتا علينا أن نتحدث».

ضمت منفضة الغبار إلى صدرها تشعر بالأسى، هل قابل تريشا وقرر أن من المستحيل إكمال طريق الحياة معها؟ هل اقتنع أن عليه إما أن يكون مع المرأة التي يحب أو لا يكون؟ أحنت رأسها فلم تشاهد كيف اشتد ضغط فمه، وبدا للحظة متألماً.. عضت على شفتها وسألت: «عن ماذا؟».

لوح بيده دليل نفاذ صبر:

- تلاحظين دون شك أن أموراً قد تغيرت.

هذا لأنه قابل تريشا ثانية ولأنه عامل زوجته بالحسنى، وعاشرها مجرد نزوة عابرة.

قالت غريتا يائسة: «لا أريد أن يتغير شيء».

ران صمت قصير قطعه فرانكو بقوله:

- أخشى أن الوقت قد فات.

تدفقت الدموع إلى عينيها، وقالت من بين أنفاسها: «أرجوك».

كادت لا تراه لأن الدموع غشيت بصرها، ولكنها ظنت أنه متجهم.. قال بصوت كأنه منتزع منه غصباً:

- عزيزتي.. لا تظهري هكذا!

ابتلعت ريقها وحاولت عبثاً السيطرة على صوتها.

- آسفة.. إنما أحاول أن أكون متعقلة.

متعقلة؟ وكيف تكون كذلك وهو يقول لها إن قلبه ملك لتريشا؟ متعقلة؟ إنها تحس برغبة في تدمير جدران المنزل وفي الصراخ وإظهار ألمها لكل العالم.. ولكن الغلطة غلطتها.. هي من كانت السبب في ما حدث وعليها الصبر.

ردد فرانكو ما كانت تفكر فيه:

- التعقل غير مجدٍ فهو لم ينفعني كثيراً على أي حال.

- ماذا..

عندما رأت وجهه صمتت فقد بدا لها رجلاً يواجه معركة يعرف أنها معركته الأخيرة.

قال ببساطة: «لا أستطيع المضي على هذه الحال..».

أصدرت آهة خفيفة فابيضّ وجهه.. ولكنها عرفت أنه يعني ما يقول.. فلم تشاهده قط جاداً كما هو الآن. لا شك إذن أن مقابلة تريشا قد أثرت فيه فتحرك الغضب في نفسها وسألته:

- لماذا تزوجتني فرانكو؟

ارتفع رأسه وكأنها لطمته، وما أدهشها رؤيتها له ضائعاً تائهاً. أيعجز عن مواجهة الحقيقة بشأن اتفاقهما البارد، لم تدع له مجالاً للتفكير، وسألت بإصرار: «لماذا؟».

قال بلهجة من أرعبه الاكتشاف: «لقد آلمتك».

أخبرته ضحكتها الحقيقة بأوضح من أي كلمات فعادت تسأل: «لماذا؟».

مرر يداً قلقة على عينيه.

- كان هذا.. مقامرة.. مخاطرة. كان عليّ أن أجرب.. ألا ترين هذا؟ أنا لم أقصد قط إيقاع الأذى بك.

ولكنها تجاوزت مرحلة أن تكون منصفة بحقه.

- وماذا كنت تعتقد أنه سيحدث؟ أظننت أنني لن أكتشف الحقيقة؟

كان رغم سمرته شديد الشحوب.. وقال بهدوء:

- لا شك أن الأمر بدا لك سخيفاً ولكنني اعتقدت أن بوسعي السيطرة عليه.

صاحت وكأنها أصيبت بطلق ناري.. فنظر إليها مصعوقاً وحاول التقدم إليها لكنه توقف حين انتفضت فكان أن ارتفعت يده إلى خده

المثلوم وأغمض عينيه. ثم قال:

- أنا آسف أشد الأسف.. كنت آمل..

يأمل أن ينسى تريشا؟ صدر عن غريتا نحيب مخنوق بعضه ضحك وبعضه احتجاج.. فتقدم إلى جانبها بسرعة ولكنها رفعت يدها إليه توقفه، ثم استدارت لتتجنب وجوده القوي، وعمد هو فوراً إلى التوقف سائلاً بقلق لا نهاية له:

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟

أحبني! كادت تقول له هذه الكلمة. يبدو أن سيطرتها على نفسها ستتلاشى قريباً لذا ليس أمامها إلا الخروج من هنا قبل أن تجلب على نفسها وعليه المزيد من الإحراج.

قالت وكأنها تكلم نفسها: «دعني أذهب».

تحركت حنجرته، ثم تراجع ملتصقاً بالجدار، مادّاً يديه، فاتحاً راحتيه.. الطريق مفتوح.. فاندفعت تمر به قبل أن تتدفق الدموع المذلة.

لولا عمى بصرها المغشي بالدموع، لما اضطرت للذهاب إلى الجون الصغير، الذي فيه من الذكريات الكثير الكثير ولكنها كانت يائسة فتوجهت إلى حيث حملتها قدماها.

أخيراً وجدت نفسها على الشاطىء. تسير فوق الرمال الناعمة بين الأخشاب التي رماها البحر والعشب الشائك وحاولت أن تمسك بعنان أفكارها الجامحة.. يجب أن تعود طبعاً وهي تعرف ما عليها القيام به كما تعرف أن الواجب يحتّم عليها أن تكون متمدنة.

كانت غارقة في أفكارها فلم تلاحظ اقتراب أحد نحوها. ولكن هذا الشخص وضع يده على كتفيها، فلما رفعت بصرها قالت: «يا إلهي».

كانت تعرف أن غودفري سيظهر من جديد ومع ذلك فوجئت:

- كنت أنتظرك منذ أيام. . ظننتك ستأتين في وقت أبكر من هذا.

نظرت إليه بغضب، فأكمل: «أعطيت ذلك الولد المدلل رسالة».

بدت مرتبكة: «اليكسي، أعطيت اليكسي رسالة. لماذا؟».

قام غودفري بحركة ذات مغزى، يفرك السبابة بابهامه. .

حين نظرت إليه بارتباك غمز لها وقال: «المال».

وكادت تضحك: «قلت لك يا غودفري إنك لن تحصل على المزيد».

تجاهل قولها:

- أتريدين أن أكلمه بنفسي في المنزل؟ أهذا ما تريدين؟

وقهقه إحدى قهقهاته الصاخبة العاتية ليظهر لها أنه لا يقصد التهديد تماماً.

بدأت غريتا تدرك أنها لا تحب عمها غودفري كثيراً. . وقالت بحزم: «لا!».

شدها إليه بوحشية: «أتريدين كل شيء لنفسك، ألا تعلمين أنه أثرى رجل على طول الساحل؟».

اكتشفت أن ما حدث بينها وبين فرانكو في الصالة الكبيرة تركها خالية الوفاض من المشاكل الأقل شأناً. . فنفضت يده عنها.

- غودفري. . أنت محتال مخادع. . لقد أفسدت حياتي طوال سنوات بمطالبك ورواياتك عن أبي ولكنني ما عدت أهتم بهذا كله. ولن أسمح لك بامتصاص مال الرجل الذي أحب.

نظر إليها مستغرباً وكأنه لا يصدق ما يسمع: «أنت غبية».

ابتسمت بخشونة، فلن يقدّر عمها صدق كلماته وقالت تستدير عنه: «من دون شك».

هذه المرة، فعل غودفري أكثر من إمساكها فقد صفعها بقوة، كما كان يفعل في مراهقتها، فارتجفت، وفقدت قدماها تماسكهما على

الرمال. . خافت لأنها عرفت أن خيبة الأمل أغضبته. . فرفعت ذراعيها تحمي نفسها، ولكنها فقدت توازنها. أما غودفري فاندفع إليها بغضب يضربها ويضربها حتى فقدت القدرة على الصراخ. فحاولت إبعاده وحاولت الهرب فلم تستطع.

ثم. . فجأة، انتهى كل شيء، فقد ابتعد عنها غودفري وكأنه ليس أكثر من غصن مؤذ. تقوقعت على الرمال ولكنها سمعت صوت اصطدام جسده بالرمال خلفها، فشهقت باكية تمسح عينيها وتحاول الوقوف.

للمرة الثالثة في حياتها ترفعها هاتان اليدان وتضمانها إلى صدر قوي العضلات. لم تكن أنفاس فرانكو قد تأثرت. . . حين أدار ظهره إلى غودفري دون أن يقول كلمة. أما هي فلفظت اسمه باستغراب وبصوت متهدج. فلما نظر إليها ارتجفت مذعورة وشرعت تقول له إنه لا يمكنه حملها طوال المسافة إلى المنزل ولكنه أصمتها، والغريب أنها رأت في عينيه مرحاً والأغرب أن وراء هذا المرح حناناً حيرها.

وقال لها متعالياً: «حبيبتي غريتا لن أسمح لك بهذا القول مرة أخرى».

فصمتت.

* * *

١٠ ـ أحبني فقط

حملها إلى غرفتها فاحتجت غريتا بخجل:

ـ أوه.. لا! أوه.. حقاً أنا لست مريضة!

ضحك لها: «تلقيت صدمة أو فلنقل إنني أنا من تلقاها».

نظرت إليه مفكرة:

ـ أتقصد غرفتي لأستريح أنا أم لتستريح أنت؟

ـ للأمرين معاً.

وضحك ثانية قبل أن يدفع الباب بكتفه لم تكن لوريتا قد نظفت صينية القهوة عن الطاولة قرب السرير، مع أن الغرفة كلها كانت مرتبة ونظيفة..

تقدم فرانكو إلى السرير ووضعها فيه بلطف.. ثم استقام واقفاً ينظر إلى وجهها بقلق:

ـ بم تشعرين؟

ـ أشعر بأنني حثالة. لا حاجة إلى هذا الحنان أو إلى هذه الرعاية..

ـ بل هناك كل الحاجة.

جلس قربها بهدوء ثم جذبها إلى ذراعيه.. لم تحاول حتى المقاومة، بل استسلمت لعناقه وكأنها لم تسمع شيئاً اسمه التحفظ. أخيراً ابتعد قليلاً يطلق تنهيدة كانت أكثر من آهة.

ـ قلت لك إنني بحاجة إلى هذا ولكنني ظننتك لن تسمحي لي بالاقتراب منك مرة أخرى.

وضعت يدها على جانب وجهه.. ثم استوعبت فجأة ما قاله لها، ورفعت رأسها تنظر إليه: «ماذا تعني؟».

اشتدت ذراعاه حولها: «كنت راحلة»؟

ـ لكن..

صمتت تحاول أن تفهم سبب الدفء المفاجيء الذي يطغى على وجهه.

كرّر سؤالها: ـ «لكن..؟».

ـ هذا لأنك ما عدت بحاجة إليّ.

ـ إذن هذا هو السبب. ومتى كنت لا أحتاج إليك؟

أغمضت عينيها لئلا ترى الإغراء في ابتسامته:

ـ أنت تريد زوجة وتحتاج إلى تريشا ولكنني صدف أن جئت بشكل عرضي في الوقت المناسب، حين لم تستطع الحصول على تريشا.

أطلق صيحة ضاحكة مرتفعة:

ـ يا فتاتي الحبيبة.. لقد هدرت عليك وقتاً أكثر مما هدرته على جميع النساء في كل حياتي. لقد ضيعت من عمري سنوات.

فغرت فاها: «ماذا؟».

ارتجف فمه وهو يكرر: «عشر سنوات».

فصاحت من أعمق أعماقها: «لا أصدقك لقد احتقرتني ونعتني بالمبتزة».

اشتدت شفتاه حتى أصبحتا كحد السكين ولكنه حين عاد إلى الكلام كان هادئاً:

ـ أوه.. إنه طبعي البغيض! فأنا لم أكن أؤمن حقاً أنك مبتزة.

ابتلعت ريقها بصعوبة: «لكنك أعطيتني مالاً لأرحل».

جاء دوره للتحديق بذهول: «عمَّ تتحدثين؟».

انتفضت متألمة من الذكرى:

- سألتني إن كان المبلغ كافياً.

ابيض وجهه: «أوه، يا الله..»!

- ألا تذكر؟

- بلى أذكر، أذكر كل كلمة قلتها لك، وكل كلمة لم أقلها، فليساعدني الله! كيف لك أن تكوني بهذا الغباء؟ وكيف لي أن أكون في هذا السباق؟

سحب نفساً عميقاً، ثم أطلقه:

- أنا لم أعطك المال للرحيل، بل لم أكن أريد أن ترحلي.. ولكن الجميع كان يقول إن هذا أمر غير عادل.. قلت لي إنك تريدين العودة إلى انكلترا ولأن عمك كان شريراً ولأنه يحق لك بفرصة في الحياة أعطيتك المال الذي يحملك إلى بلادك صدقيني هذا هو السبب لا شيء آخر.

تذكرت الحدة في عينيه، والتوتر الغريب الذي بدا عليه وهو يعطيها المال.. فسألت: «لا شيء آخر؟!».

تردد: «لا، كان هناك شيء آخر، إنما لا أدري ما إذا كنت ستفهمين».

اتكأت غريتا على مرفقها.. فهنا أمر يجب أن تفهمه، وهو مهم جداً، بل ربما كان الأهم في كل وجودها. نظرت إلى وجهه قلقة فرأت عينيه الخضراوين قاتمتين وحذرتين ورأت أثر جرحه يفضح توتره وقالت هامسة: «أخبرني، أرجوك يا حبي».

أمسك يدها ووضعها على وجهه، يدفن خده في راحتها بشوق مفاجيء. الحركة السريعة الخرقاء، كادت تقطع أنفاسها، فأصابعه كانت ترتجف.

- كنت أمنحك فرصة.

قالت:

- فرصة؟.

- فرصة للهرب من الذكريات الحزينة ومن عمك ومني.

وابتلع ريقه بصعوبة، فقالت وهي لا تصدق مسمعيها:

- لكنك أبعدتني! لم تكن تريدني.

أدار شفتيه إلى راحة يدها فجعلتها اللمسة الناعمة ترتجف.

- ألم أكن أريدك؟

- لكن..

رفع نظره إليها.. فإذا عيناه ذائبتان، وكأنهما نار زمردية ولكنها استطاعت أن تقرأ بوضوح ما فيهما من مشاعر:

- أردتك حالما وقعت عيناي عليك. كنت جميلة جداً مفعمة بالحياة، وكنت قد نسيت أن الناس قد يكونون هكذا سعداء فقط ببهجة الحياة.. كنت تضحكين مع تريشا، ومع الأولاد الذين يركبون الخيل معك على الشاطيء. كنت أراقبك كمراهق وقع في الحب لأول مرة.

صدر عن غريتا صوت غريب، فتحولت ابتسامته إلى قلق.. وقالت مرتجفة:

- أنا.. لم أشك قط أنك تملك نحوي مشاعر.

- كنت حذراً لئلا تدركي حقيقة شعوري فقد كنت طفلة. لكنني لم أسامح نفسي.

- كنت في الثامنة عشر وما هو بسن الطفولة.

- لم أعنِ هذا بل كنت بريئة.

- إن كنت تعني أنني كنت مراهقة ساذجة، فقل هذا!

ضحك: «ليس هذا ما أقصده، فأنا لم أشأ أن تنضجي بأسرع مما يجب.. هذا كل شيء».

غاص فوق السرير، وجذبها ينظر إليها.

- غريتا.. حبي.. لقد أحببتك ولكنك كنت صغيرة على عمرك أما أنا فكنت في الثلاثين.. فماذا يفترض أن أفعل؟ كنت كلما رأيتك ازددت فيك رغبة، وكانت رغبة أقوى مني لهذا كنت أشعر بالتوتر.

تركها وتمدد على ظهره وذراعه فوق عينيه:

- لهذا السبب فقدت أعصابي معك ذلك اليوم، كما أعتقد. كنت أمسك بزمام نفسي بحدة طوال الوقت ولكنني كنت أطلب المستحيل.

تذكرت غريتا فجأة كيف ذكرته لوريتا بحدة أنها ما تزال صغيرة جداً.. وبدأ كل شيء يتضح. كانت بثيابها الضيقة وبشعرها الطويل الأشعث، تبدو فعلاً طفلة. فهل كانت لوريتا والبارونة وأشخاص آخرون يذكرونه بفارق العمر.

قالت بلهجة من اكتشف شيئاً:

- كنت إحدى مقامراتك.. أعني، حين أعطيتني المال كنت تريد أن ترى إن كنت سأهرب أم أبقى فإذا هربت حُلّت مشكلتك.. وإن لم أهرب..؟

لم ينتزع ذراعه عن عينيه:

- لست قديساً! كنت عاجلاً أم آجلاً سأحاول ثانية.

فكرت في الأمر لحظات، ثم سألت بنعومة:

- كما فعلت في انكلترا؟ قبل أن تطلب الزواج مني؟

توتر جسده ولكنه لم يرد، أما هي فشعرت أن حملاً ثقيلاً يرتفع عن كاهلها. فقالت بحذر:

- أتعلم.. ظننتك طلبت مني ما طلبت لأنك لا تهتم بي بطريقة أو أخرى.

هذا ما دفع الذراع الواقية للارتفاع عن وجهه.. وأكملت تشرح له:

- قالت تريشا إنك لا تعاشر امرأة تريدها زوجة لك.. وإنك ترفض أن تجعل امرأة تحترمها عشيقة لك.

- أهذا ما قالته؟ متى؟

- حين توسلتني لأعيد إليك خاتمك.. كانت قلقة على ما أظن.

- أجل.. مسكينة تريشا.. أنا لم أعاملها معاملة حسنة ولكنها صديقة طيبة. ظننت الأمر سينجح بيننا، في البداية كنت يائساً بشأن آني واليكسي، وكانت تريشا أمامي فبدت لي الحل المثالي. لكن الأمر كان جنوناً بالطبع وكانت هي من أدركت ذلك قبلي لأنها تعرفني نعم المعرفة.

- إذن كانت على حق؟ لماذا طلبت مني قضاء الليل معك؟

- أجل.. كانت على حق.. فهذا مناقض لكل مبادئي.. ولكن معك أنت فليساعدني الله! أنت تدفعينني لكسر كل القوانين، بما فيها قوانيني الخاصة.. أكنت تظنين أنني سأمسك منذ عشر سنين؟ كان من المفترض أن أكون الفارس الشهم الذي أنقذك من عمك الشرير، وكان من المفترض ألا أطلب شيئاً لنفسي ولكن ماذا فعلت؟ لقد هاجمتك كمجنون مراهق.. ربما نسيت ولكنني لم أنسى. لم أندم قط على شيء أكثر من ندمي على ما بدر مني في ذاك اليوم.

انتفضت، لكن الوقت الآن ليس وقت إخفاء المشاعر:

- أنا لم أنس ذلك ولو ليوم واحد.

ارتفع ذقنه وكأنها لكمته.. أرادت أن تلمسه لكنها لم تجد الشجاعة اللازمة لتفعل ذلك.. ابتلعت ريقها ثم أردفت:

- لم يكن في حياتي شخص آخر، فرانك.. كنت أظن أن السبب هو ما سببته لي من ألم.

أغمض عينيه، ولم تستطع غريتا تحمل نظرة الألم على وجهه وأمسكت بشجاعتها ثم أضافت:

ـ لم أدرك بأن هذا هو الحب حتى تزوجنا.

فتح عينيه باحثاً عن عينيها ليأسرهما.. ثم قال بهمس متقطع: «حب؟».

هزت رأسها بحزن:

ـ كان كلما لمسني أحد أو حاول لمسي أتذكر يومي الأخير معك، في مكتبتك حين عانقتني.. فأنفر ممن يحاول عناقي.

ـ أوه.. حبيبتي. كان ذلك مجرد عناق.. وما كان يجب أن يخيفك إلى هذا الحد ولعل هذا أدل برهان على مدى صغر سنك في ذاك الوقت كانوا جميعهم على حق.. أترين؟

ردت بشراسة: «لم أخف، لا في ذاك الوقت ولا الآن.. أردتك فرانكو.. ما آلمني هو ظني أنك لا تريدني. والآن، أعرف أنني كنت مخطئة.. هل لك أن تجيبني عن شيء بكل صدق.. فرانكو؟».

نظر إلى رأسها المنحني وقال ببساطة: «نعم».

ـ أتحب تريشا؟

ـ لا.

كان رده العفوي السريع أبلغ من أي احتجاج.. فأحست براحة عظيمة والتفتت عيناها إلى عينيه عندها تلاقت أيديهما وتشابكتا.

ـ تريشا مجرد صديقة. أما أنت، فحبي.

أرادت أن تصدقه، لكنها شعرت بالقلق مدة طويلة. فقالت: «في أحد الأيام.. ربما لا تذكره، تحدثنا عما نريد فيما لو استطعنا الحصول على شيء.. وقلت انك كنت ستحصل على ما تريد يوماً، فإن كنت تعني تريشا فأنا قادرة على تحمل هذا.. لكن أرجوك لا تكذب علي، ولا حتى من أجل إسعادي.

اشتدت أصابعه على أصابعها بشكل مؤلم.

ـ عنيتك أنت.. ابنة الثامنة عشرة ربيعاً، حب حياتي. وقلت لك

يومذاك إنني لم أستحقه.. أتذكرين؟ حسناً كنت أعني ما أقول.. أحسست في ذاك اليوم أنني لست أفضل من ذلك الرجل الذي هاجمك.. ولن أنسى أبداً اللحظة التي وجدتك فيها في البستان. في تلك اللحظة رميت غروري عرض الحائط وحاولت مغازلتك.. حبيبتي ليتك رأيت نفسك.. كنت شاحبة يائسة للهرب.

أدركت غريتا أن المواجهة القديمة العهد كانت كابوساً له بقدر ما كانت لها.. وردت على ضغط أصابعه تقول:

ـ كان سبب ذلك نعتك إياي بالمبتزة. ما كان أشدّ خجلي!

وابتلعت ريقها.

ـ كانت غلطتي مع أنه لم يكن لك شأن بمشاريع غودفري واحتياله.

أسكتته:

ـ لا.. لم أكن أخجل من غودفري أو عائلتي.. كنت أخجل من نفسي.. مني.. من الطريقة التي كنت فيها معك. أنت لا تذكر.. لكن..

قاطعها بحدة:

ـ أذكر؟ يا إلهي، لم يمر بي يوم منذ ذلك اليوم لم أذكره فيه. كنت أتساءل دائماً ماذا كان سيحدث لو لم أتوقف عما كنت سأقدم عليه، فهل كان سيشكل هذا أي فرق؟ فأنا لم أحظ قط بعذراء.

قاطعته وهي تضحك: «بلى. حظيت بواحدة».

قال بخشونة: «لكنني ظننت».

تمتمت: «أظننت أنني نسيتك؟ أنت نسيتني أما أنا فلا! ألم تفعل؟ لقد قلت لك فرانكو، إنه لم يكن في حياتي أحد سواك.. كنت بريئة ساذجة منذ عشر سنوات، لكنني على الأقل كنت أعرف أنني لا أريد سواك».

أبعدها عنه بغضب:

ـ لكنك كنت ستتركيني.. اليوم.. هذا الصباح.. كنت متضايقة، وكنت سترحلين.

ـ لأنني كنت أظن أنك ما زلت تريد تريشا!

ضربته بقبضتها على صدره وهي تصيح وأكملت:

ـ لم تنفك عن القول إنك لا تستطيع السيطرة على الأمر.. فظننتك تريدها.

رد ساخطاً: «لكن يا حبيبتي لك أنت حبي المتقد... امرأة واحدة استطاعت التلاعب بسيطرتي على ذاتي».

ـ إذن لماذا قلت إنك لن تستطيع الاستمرار؟

رماها فوق الوسائد مكشراً عن أسنانه وكأنه يريد أن يعضها:

ـ لأنني لم أستطع! كدت أجن كلما أبعدت يدي عنك! وكنت أعتقد أن هذا ما تريدينه أنت.. لماذا فعلت بي هذا وبك ما دمت تريدينني؟

أحست بدوار فأجابت بصدق: «لأنني لم أرغب في إحراجك».

ـ إحراجي؟

لف أصابعه على عنقها، وقال مكملاً:

ـ سأخنقك، إحراجي بالله عليك..

أحست بوجهها يمتقع بحرارة: «كنت أكثر من مهتمة بك».

رفع رأسه متأوهاً.

ـ وأنا لم أكن؟ حين دخلت إلى منزلي ذلك اليوم في لندن أحسست أن شيئاً لم يتغير منذ عشر سنوات.. وكان علي أن أحصل عليك؟

ارتجفت أصابعها على صدره الدافىء وسألت مرتجفة:

ـ أتعني منذ أول يوم؟

ـ بل منذ أول دقيقة!

ـ لكن..

قاطعها: «اتصلت بتريشا حالما خرجت وكانت تنتظرني».

ـ ماذا؟

ضحك بخشونة: «كانت تريشا تلعب دور «كيوبيد» بيننا. كنا نتحدث عنك في الأمسية السابقة لأنني عرفت أين تعملين ويبدو أن شيئاً ما أثار ريبتها، ولأنها كانت تعيد النظر في مسألة الزواج بي فكرت من خلال شيء ما قلته أو لم أقله إنني كنت أكثر من مهتم بك قبل عشر سنوات وكانت مؤمنة أنك كنت تحبينني».

حاولت أن تحتج ولكنه قاطعها مبتسماً:

ـ يجب أن أقول إنني وجدت هذا مشجعاً، لأنني حتى ذاك الوقت لم أكن قد لاحظت شيئاً.. في ذاك الحين كنت ما أزال متألماً من جرحي، فلم أعتقد أن أحداً سينظر إلي دون أن يصاب بالغثيان.. خاصة فتاة انكليزية رائعة.. كانت..

ردت عليه ساخرة: «لا تملك ما يكفي من ثياب».

ـ قد تكون ضيقة قليلاً.. ولكنني أعترف بخيبة أملي حين اكتشفت أنك انتقلت إلى ارتداء بذلة العمل الرسمية والبلوزة العالية الباقة.

ـ لكنك قلت إنني لم أتغير.

ـ كنت آمل ألا تكوني قد تغيرت.. لذا أحسست كأنك لم تتغيري.. وكأنما كل ما كان بيننا ما يزال موجوداً وهو لا يحتاج إلا إلى حسن التعامل معه.

ـ وهكذا حاولت إغوائي.

تذكرت تلك الليلة في الفندق قرب النهر حيث كادت تقع ضحية سحره. وليتها وقعت في ذاك اليوم!

اعترف فرانكو: «لقد جرفتني عاطفتي قليلاً».

ـ وجربت حظك.

ارتجف بسعادة: «وكدت أفقدك».

هزت رأسها: «لا أظن ذلك».

- إذن أجدت التمثيل حقاً يومذاك. ظننت بعد ذلك أنني أحرقت كل مراكبي.. لذلك أتيتك متوسلاً لأجل آني، واليكسي. وفي الواقع إن ما كنت أريد قوله هو إنني أحبك بجنون وان حياتي لم تكن مكتملة، ولن تكون بدونك. لكن، لم يبدُ لي مناسباً أن أعتمد عليك اعتماداً كاملاً كما أنني لم أتصرف معك بشهامة.. لذلك حاولت أن أكون ماكراً، ورميت كلينا إلى النار..

تمتمت: «أيها المنافق الماكر أتمنى ألا يكون اليكسي قد تلقى منك الدروس».

بدأ يضحك بصوت منخفض: «كنت مخططاً لامعاً، ولكنني كدت أفقدك. إنما حالما سمعتك تقولين لغودفري «الرجل الذي أحب» حتى عرفت أن هناك بعض الأمل».

فجأة غابت ابتسامته، وتوتر جسده وهو ينظر إليها نظرة لا ادّعاء فيها.

- لم أصدق ما سمعت حتى الآن. أكنت مخطئاً غريتا؟ هل تعطيني فرصة أخرى؟

نظرت إليه بحب وبحذر شديد ثم أمسكت وجهه بين يديها تمرر أصابعها على جرحه وعلى خده السليم وقالت هامسة:

- الرجل الذي أحب لا يحتاج إلى فرصة أخرى.

سحب فرانكو نفساً عميقاً، ثم احتواها بين يديه يعانقها بحب كما لم يفعل قط كان كمن يستكشف ببطء ولطف التجاوب المستعر داخلها.

فيما بعد ناما قليلاً، والغريب أن أحداً لم يزعجهما. كان هذا ما علقت عليه غريتا بعد وقت طويل. فتمتم فرانكو، وخيط المرح الذي ستبقى ذكراه إلى الأبد في صوته:

- ليس الأمر عجيباً حبيبتي.. لقد قلت للوريتا منذ وصولنا إن علينا حين نكون معاً في الغرفة أن تشغل نفسها، وتتركنا وحدنا حتى ننزل.. وكدت أظن أن هذا احتياط لا لزوم له.. لكنني الآن سعيد لأنني لم ألغه.

قالت بدون ضغينة: «أنت صاحب إغراء كبير لذا سأسامحك».

- حسناً.. أشكر الله على هذا.. على الأقل!

قالت فجأة: «ولكن المعجزة حدثت عندما جئت إلى الشاطىء حيث كنت مع غودفري.. إن هذا الحظ مذهل».

- لا.. لم يكن، بل السبب هو اليكسي، يبدو أن غودفري يتواجد هناك منذ أيام محاولاً إقناع اليكسي بأن يحضرك إليه.. حين شاهده برفقتك هذا الصباح قرر أن في الأمر ما لا يعجب فأتى يخبرني.. إنَّ في هذا الولد أكثر مما ظننت.

- أكان يعلم أنه عمي؟

احتضنها فرانكو: «لا، بل ظنه متشرداً فخشي أن يؤذيك».

ارتجفت: «وهل عرفت؟».

أدار رأسه وقبّل جبينها: «تكهنت أنه هو لأنني توقعت أن يظهر على الشاشة آجلاً أم عاجلاً».

نظرت بسرعة إلى وجهه، تدهشها لهجته اللامبالية: «أوَلا تهتم؟».

- أهتم؟ كل ما يهمني أنه سبب لك الأذى. إن عاد للظهور ثانية فسأشعر باللذة وأنا أرميه من فوق الأدراج، سواء أكان عمك العجوز أم لا.

عضت شفتها: «إنه وغد متشرد».

- بكل تأكيد.

- مع ذلك فهو قريبي أعني أنه من لحمي ودمي.

لم يكن كلامها واضحاً لأنه كان في صوتها غصة عار..

فتلاشت الحيرة من وجه فرانكو، ووضع ذراعه على كتفيها وأخذ يفرك ذقنه على رأسها وكأنه يهدهد طفلاً.

- لنا جميعاً أقارب كالأشباح.. وهذا أحد الأخطار التي تولد مع الإنسان.. كان أخي نموذجاً رائعاً للشر على ما أعتقد.

فتحت يديها على صدره، وكأنها تتحسس المشاعر المكبوتة.. وتابع بهدوء:

- أنت تعرفين أنه المسؤول عن جرحي أما معظم الناس فيعتقدون أنني أصبت به من جراء حادثة ولكنه ليس حادثاً. لقد كان في مزاج غضب أعمى، وجاء يسعى إليّ بسكين الصيد.

تأوهت خوفاً ثم جذبت نفسها إليه أكثر فأكثر فضحك:

- لا بأس، لقد انتهى الأمر.. مع أنني أحسست بالبؤس حين حسبتك لا تطيقين رؤية وجهي بسبب الجرح ولكن سرعان ما تخطيت هذه العقبة.. كنت صادقة معي دائماً ولم أرَ أنك تشمئزين من منظري.

كان صوته هادئاً، لكن غريتا أحست بقلقه، فرفعت نفسها على مرفق واحد، ونظرت إلى عينيه مباشرة:

- أحب كل شيء فيك.

قبلت البشرة المثلومة تحت عينه وأكملت:

- بما فيه هذا.

أحست بتزايد ضربات قلبه، وتمتمت:

- لقد أقنعتني.. تغاضيت عن غودفري، وسأنسى أمر أخيك، أو العكس بالعكس.

كان صدره تحت أصابعها الناعمة يعلو ويهبط فأدركت أنه كان يضحك ضحكة عميقة ملؤها البهجة والدهشة..

قال موافقاً:

- حسناً.. قولي ما تريدين لكن أهذه هي مشكلتك الأخيرة قبل أن نستقر في نعيم الزواج؟ أم ما زال هناك اضطرابات عصبية مخبئة؟

أدنت قبضتها من ذقنه، وقالت ساخطة:

- من كان المسؤول عن اضطراباتي العصبية؟ من كان المتكبر، المتباعد.. و.. و.. وعديم الشعور الذي ربطت نفسي من أجله في سلسلة من العقد؟

رفع يده يمسك يدها ليفتح الأنامل المشدودة التي راح يلثم كلاً منها بشغف.

- مذنب، مذنب، وتائب ومتذلل دعيني أعوض عليك.

نظرت إليه بارتياب لأنه لا يبدو أبداً نادماً: «كيف؟»

مرر أصبعه على شفتيها فلما حبست أنفاسها واضطربت عيناها ضحك ثم قال مقترحاً المساعدة.

- بأن أساعدك على حل عقدك.

مرر يده على كتفها فضجّ الدم في عروقها. حاولت الابتعاد ساخطة لكنه لم يتركها، وهمس:

- إنها عقدي كذلك.. فساعديني.. قلت لك مرة إنني سأهبك كل ما أقدر عليه.. فدعيني أجرب.

وهذا ما فعلت غريتا، وطالبته بما تريد.. أمسكت رأسه بين يديها وقالت هامسة بصوت أجش:

- أحبني!

***